أحمد شوقي

شاعر الأمراء.... وأمير الشعراء

موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث

أحمد شوقي

شاعر الأمراء... وأمير الشعراء

إعداد ودراسة: هاني الخير

أعلام الشعر العربي /أحمد شوقي/

شاعر الأمراء وأمير الشعراء

إعداد ودراسة: هاني الخيّر

سنة الطباعة: ٢٠١٠.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

الترقيم الدولي: 9 - 33 – 410 – 9933 - 987

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٩٦٣

تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

أنــا إذاً عربــي. تركــي. يونــاني. جركــسي بجدتي لأبي.

أصـول أربعـة في فـرع مجتمعـة. تكفلـه لهـا مصر كما كفلت أبويه من قبل. وما زال لمـصر الكنـف المـأمول والنائـل الجـزل. علـى أنهـا بلادي. وهي منشأي ومهادي ومقبرة أجدادي.

أحمد شوقي

إضاءة

أحمد شوقي شاعر الأمراء.... وأمير الشعراء

((١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م))

ولد في القاهرة في زمن الخديوي اسماعيل سنة /١٨٦٨م/ درس في مدرسة "المبتديان" ثم في المدرسة "التجهيزية". وفي سنة /١٨٨٣م/ دخل كلية الحقوق، ثم أرسله الخديوي توفيق إلى فرنسا سنة /١٨٨٧م/ لمتابعة دراسة الحقوق، فدرس سنتين في مدينة مونبلييه وسنة في باريس، ونال الإجازة في الحقوق سنة /١٨٩١م/. وقد رحل في أثناء تلك المدة إلى انكلترا والجزائر. وعاد إلى مصر سنة /١٨٩١م/. وكان يتقن ثلاث لغات: العربية والفرنسية والتركية.

وفي أوائل سنة /١٩١٥م/ نُفي من مصر فارتحل إلى أسبانيا وأقام في برشلونة. ولم يعد إلى مصر إلاّ في أواخر سنة /١٩١٩م/. ولما أنشئت الحياة النيابية في مصر عُيّن شوقي عضواً في مجلس الشيوخ.

وفي هذا الشأن كان المنفى الأسباني الذي فرض على أحمد شوقي بعيد قيام الحرب العالمية الأولى سنة /١٩١٤م/ نقطة التحول الكبرى في حياته الشعرية، وفرصته للخلاص والتطهير، على حد تعبير الناقد الأديب فاروق شوشة.

ها هو ذا الشاعر الذي أطلق على نفسه شاعر الأمير:

شاعر الأمير وما بالقليل ذا اللقب

والذي أطلق عليه الناس شاعر القصر، يُنفى بأمر الاستعمار الانكليزي خارج وطنه، لشبهة ارتباطه الحميم بالخديوي عباس حلمي الثاني، الذي خلعه الانكليز

عند نشوب الحرب خشية ولائه لتركيا التي وقفت في المحور المعادي لانكلترا، وأتيحت لشوقي بالرغم من مرارة الغربة، فرصة التأمل في حاضره ومستقبله. إنه يُنفى بسبب ارتباطه بالقصر. لِمَ لا يكون ولاؤه من الآن للشعب وللعرب، الذين شغلوا بشعره وفتنوا به، وتنبهوا منذ وقت مبكر إلى عبقريته الشعرية وسبقه لكل شعراء زمانه. وهكذا كان الالتفات إلى الشعب، بعد العودة من المنفى الإسباني إلى وطنه مصر، بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى المشؤومة أوزارها.

وفي سنة /١٩٢٧م/ عُقد مهرجان لتكريمه في دار "الأوبرا" بالقاهرة، فحضرته وفود البلدان العربية وبايعته بإمارة الشعر.

وفي هذا الصدد فقد تعرض أحمد شوقي خلال حياته، إلى نقد مرير، فقد هوجم كما لم يهاجم شاعر مثله حياً، ودبجت فيه الكتب والمقالات والموازنات وفتحوا عليه النار وأبواب الجحيم من كل جانب. هاجمه عباس محمود العقاد وزميله ابراهيم عبد القادر المازني في كتابهما الشهير ((الديوان)) بما معناه:

لقد ذاع لشوقي بيت سوقي فظن أنه سقط على كنز وطار به، كأنه لا يصدق أنه له أو كأنه يخشى أن ينازعه لفرحته به وهو:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكرر فقال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن تولت مضوا في أثرها قدما

ثم كرر أيضاً في قوله:

وليس بعامر بنيان قوم

إذا أخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره إذ يقول:

ملـــك علـــى الأخـــلاق كـــان بنـــاؤه

مــــن نحـــت أولكـــم ومـــن صـــوانه

وكرره في نشيده وفي قصائد أخرى، وكل هذا الفرح بمعنى يعد من تحصيل الحاصل إن كان له مدلول، فليس يقول لك ما يستحق أن تصغي إليه من يخبرك بأن الأخلاق الصالحة ملاك صلاح الاجتماع وقوام الأمم. ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون عكسه ظاهر البطلان ويطرد فلا يزيد على ما هو متعارف فإنما يقرر البديهيات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية أو حقائق التمرينات الأولية.

ورحم الله القناعة، لقد كان الشاعر ابن سودون المجنون يضحك الناس في بائيته بمثل هذه الحكم:

عجـــبٌ عجـــب عجـــب بقـــر تمــــشي ولهـــا ذنـــب

لا تغــضب يومـــاً إن شـــتمت والنـــاس إذا اشـــتموا غـــضبوا

إلى أن يقول:

الناقـــة لا منقـــار لهـــا والـــوزة لـــيس لهـــا قتـــب

وكثيراً في قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه أن يقال فيها أنها سخيفة ظريفة. وها هنا شاعر خلا كلامه من هذا الظرف ولكنه يطمع بالسخف البحت أن يستأثر بدولة الحكم والأمثال.

ومهما يكن من أمر فإن أمير الشعراء أحمد شوقي كان يدافع عن مجده ويؤمن أنه فوق النقد والنقاد، ولم يكن مغالياً في رأيه، فيعترف النقاد بعبقريته، لكن بعد رحيله، ويتراجع من رشقه بسهام النقد عن انطباعاته حول تراثه الشعري الشامخ، لا سيما إذا عرفنا أن تجربة أحمد شوقي الشعرية قد صقلت واكتملت ونضجت في السنوات الخمس الأخيرة من حياته، مما أتاح لناقديه أن يتراجعوا عن أفكارهم السابقة....

فيقول العقاد بعد رحيل شوقي واصفاً إياه بأنه إمام مدرسة:

"كان أحمد شوقي علماً في جيله. كان علماً للمدرسة التي انتقلت بالشعر من دور الجمود والمحاكاة الآلية إلى دور التصرف والابتكار. فاجتمعت له جملة المزايا والخصال التي تفرقت في شعراء عصره".

ويقول عميد الأدب العربي طه حسين:

"هو شاعر خُلق ليكون مُجدِّداً فأقبل على التجديد في السنين الأخيرة من حياته، فأدخل في اللغة العربية وفي الشعر خاصة فناً جديداً لم يسبقه أحد إليه. ومهما يكن من شيء فحسب شوقي أنه ردّ للشعر العربي قوته ورصانته ومكانته".

ويقول المازني:

"إن شوقي كان من أنضج شعراء طبقته وكان أدقهم تعبيراً وأبلغهم، وكان عنواناً ورمزاً لمصر والمشرق العربي كله وأكبر ظني أن اسمه سيظل مذكوراً في تاريخ عصره مهما بلغَ اختلاف الناس في أمره".

واختلف الناس في أمره كثيراً....

وفي كل الحالات عاش شوقي ومات سنة /١٩٣٢م/...

وكان الاثنين معاً على حد تعبير الأديب فتحي سعيد:

شاعر الأمير... وأمير الشعراء.

وباختصار شديد... فإن أحمد شوقي واسع المواهب الشعرية، عرف وبمهارة أن يجمع بين القديم والحديث، وأن يستفيد من موضوعات وأساليب الإفرنج، فلم يكتف بقصائد الرثاء والمدح والوصف، وتسجيل الأحداث التاريخية الجسيمة، مما تجده عند شعراء عصره أمثال: حافظ ابراهيم، واسماعيل صبري، وخليل مطران، ومحمود سامي البارودي، بل نظم التمثيليات الشعرية، والأمثال، والتاريخيات وما إلى ذلك، مما جعل له قيمة فنية رفيعة.

وتجدر الإشارة... إلى أن اللغة في شعر شوقي، أبرز عنصر من عناصر هذا الشعر، رزقه الله ذوقاً سليماً في اختيار الألفاظ وتنسيقها، فله أذن موسيقية تعرف ما يخف من الألفاظ وما يثقل على السمع، أحيا شوقي طائفة عظيمة من ألفاظ

المتقدمين أو الشعراء القدامى على حد تعبير شاعر الشام شفيق جبري. وفيما يلي هذه القصيدة التي كتبها عن لبنان وهي تثبت هذا الرأي وتقربه إلى الأذهان:

وأغـــنَّ أكحـــلَ مِـــنْ مَهـــا بكْفّيـــةَ

علقـــتْ محـــاجرُهُ دمـــي وعلقتُـــه

لبنـــانُ دارتُـــه وفيـــه كِناسُـــه

بـــين القنـــا الخطّـــار خـــط نَحِيتُـــه

السلـــسبيلُ مـــن الجـــداول ورْده

والآسُ مـــن خُـــضْر الخمائـــل قَوتُـــه

إن قلـــتُ تمثـــالُ الجمـــال مُنَـــصَبَّاً

قـــال الجمـــالُ بـــراحتيَّ مَثّلتُـــه

دخـــلَ الكنيـــسةَ فارتقبـــتُ فَلَـــمْ يطـــل

فأتيـــتُ دون طريقـــهِ فَزَحمتُـــه

فـــازورَّ غـــضبانا وأعـــرض نـــافراً

حـــال مـــن الغيـــدِ المـــلاح عرفتُـــه

فـــصرفتُ تلعـــابي إلى أترابـــهِ

وزعمـــتُهنَّ لبـــانتي فأغَرتُـــه

فمـــشى إلـــيَّ ولـــيس أول جـــؤذرٍ

وقعـــت عليـــهِ حبـــائلي فَقَنَـــصتُه

قـــد جـــاءَ مـــن ســـحر الجفـــونِ فـــصادَني

وأتيـــتُ مـــن ســـحر البيـــان فَـــصِدتُه

لمـــا ظفـــرتُ بـــهِ علـــى حـــرمِ الهُـــدى

لابـــن البتـــولِ وللـــصلاة وهبتُـــه

وفيما يلي هذه الشروحات اللغوية لألفاظ كانت رائجة عند الشعراء المتقدمين، نثبتها هنا إيصالاً للفكرة التي أشرنا إليها.

أغن: يخرج صوته من خياشيمه والاسم: الغنّة.

أكحل: من الكحل وهو أن يعلو منابت الأشفار سواد خلقه. كحل كفرح فهو أكحل وهي كحلاء.

المها: جمع مهاة وهي البقرة الوحشية.

المحاجر: جمع محجر كمجلس ومنبر: محجر العين ما دار بها وبدا من البرقع.

الدارة: قد تكون الدار وهي المحل يجمع البناء والعرصة وقد تكون كل أرض واسعة بين جبال.

كناسة: مستتر الظبي في الشجر، وكنس الظبي يكنس دخل في كناسه لأنه يكنس الرمل حتى يصل.

القنا: جمع قناة وهي الرمح.

الخطّار: من خطر الرمح إذا اهتز يخطر.

النحيت: من نحته براه.

السلسبيل: اللين الذي لا خشونة فيه والخمر وعين في الجنة.

الجداول: جمع جدول وهو النهر الصغير.

الورد: الإشراف على الماء.

الخميلة: الشجر الكثيف والملتف والموضع الكثير من الشجر.

مثّله ومثله: بالتثقيل والتخفيف صوره.

ازورّ عنه: عدل وانحرف.

الأتراب: جمع ترب وهو من ولد معك.

لبانتي: حاجتي.

أغرته: من الغيرة.

الجؤذر: وتفتح الذال ولد البقر الوحشية.البتول: المنقطعة عن الرجال وهنا: السيدة مريم العذراء.

يرى الدكتور شوقي ضيف: ((أن شوقي قد غنّى للشعب المصري، عواطفه الوطنية الماضية والحاضرة، غناءً مَلَكَ عليه لبه)).

دعا شوقي إلى الأخوة العربية، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، حين ضعفت حماسته للأتراك ـ كان قبل ذلك يدافع عن الإسلام، ويدعو إلى الخلافة، ويكثر من مدح الأتراك. ذلك يعود إلى الدم التركي الذي يجري في عروقه، وإلى ولاء سيده الخديوي لهم ـ. وهو لا يترك مناسبة، إلاّ ويكرس عروبته هذه، ومن ذلك قصائده في الشام ولبنان وسائر بلاد العرب.

أُخِذَ على شوقي، أنه أكثر من شعر المناسبات، من مدح للخديوي في أعياده وفي ذهابه وإيابه، وفي رثائه للأعيان، وإشادة بالاختراعات الجديدة، وأعمال البر والإحسان والمنشآت العمرانية. غير أن الدكتور شوقي ضيف يرى: ((أن شوقي في شعره هذا، يختلف عن الشعراء القدامى في مدحهم. فهؤلاء لم يفكروا بغير الخلفاء، أو الأمراء الذين كانوا يمدحونه، بينما شوقي يفكر ليس في ممدوحه وحسب، بل وفي جمهور الناس الذي سوف يقرأ قصائده هذه)).

رثى شوقي الأبطال المصريين والعرب، وصوّر آلامهم وآمالهم، وتضحيات وبطولات شعبهم، ورثى الرجال العظماء من أدباء وشعراء وصحفيين ووجهاء، وذوي نفوذ وسلطان، ولم يكتف بذلك، بل ذهب يرثي شخصيات عالمية، فرثى "فردي" الموسيقار المشهور، و"تولستوي" الأديب الروسي و"نابليون" البطل الفرنسي، ورثى الأديب الفرنسي "فيكتور هيغو" في ذكراه المئوية.

الذي يتصفح الشوقيات، على حد تعبير الدكتور ميشال خليل جحا، يجد أن شوقي لم يترك مناسبة هامة إلاّ تعرض لها سواء اتصلت بالشرق أو بالغرب. وهكذا ارتفع شوقي بشعر المناسبات إلى الذروة، بحيث لم يترك زيادة لمستزيد. على أن شوقي، والكلام ما يزال للأديب الناقد ميشال خليل جحا، يمتاز بشعره الغنائي، فكان شعره يشبه "السيمفونية". فقد كان شاعراً طافحاً بالموسيقى، حتى أنه لو

لم يكن شاعراً، لكان موسيقياً:

مُضْناكَ جَفَاهُ مَرْقَدُهُ ... وبَكَاهُ وَرحَّمَ عُوَّدُهُ

حيرانُ القلبِ مُعَذَّبُهُ ... مَقروحُ الجفْنِ مُسَهَّدَهُ

يستهوي الوُرْقَ تأوهُهُ ... ويذيبُ الصخرَ تَنَهدُهُ

وقد اشتهر شوقي بالارتجال العفوي في نظم الشعر. فقد كانت له موهبة فذّة، لا يتمتع بها كل الشعراء، بل قلة، جعلته يجيد النظم حتى ولو كان في جمع غفير من الناس. وفي هذا الشأن يقول الشاعر خليل مطران: ((ينظم الشعر بين أصحابه، فيكون معهم وليس معهم، وينظم في المركبة وفي السكة الحديدية، وفي المجتمع الرسمي، حين يشاء وحيث يشاء)).

ويصف لنا الدكتور زكي مبارك، التقاليد الصارمة التي كانت تسيطر على سلوك أمير الشعراء أحمد شوقي بما معناه:

كان يشرب الشاي بكثرة، وكان مغرماً بأكل البيض، كان يأكله نيئاً عند نظم الشعر، ولم يكن شوقي يستحم بالماء كما يستحم الناس، وإنما يستحم "بالكولونيا".

ولم يكن شوقي يفطر في البيت، وإنما يمضي مع الشروق، فيفطر في مطعم عام. وكان من عادة شوقي أن يتناول عشاءه في مطعم من المطاعم الفاخرة في القاهرة.

وعندما كان شيطان الشعر يداعب خيال أحمد شوقي، لم يكن يرغب في صحبة أحد معه في جولاته الهائمة غير الدكتور زكي مبارك.

ذات صباح شرب شوقي الشاي في مكتبة بشارع جلال، وقدّم لضيوفه بعض قطع "الكروسان" التي كانت تعد بكميات وافرة، وهي إحدى هوايات شوقي، فيأكل واحدة، ويقدّم لضيوفه منها.

وكان الدكتور زكي مبارك على عادته يجالس أمير الشعراء الذي وقف فجأة، وأخذ زكي مبارك في يده ثم خرج، وسارت بهما السيارة إلى كوبري قصر

النيل، حيث نزلا منها، ووقف شوقي عند سور الكوبري، وبدأ يكتب على ظهر علبة "السكائر":

مـــن أي عهـــد في القـــرى تتـــدفق؟

وبـــأي كـــف في المـــدائن تغـــدق؟

ومـــن الـــسماء نزلـــت أم فجـــرت مـــن:

عليـــا الجنـــان جـــداول تترقـــرق

واستمر يكتب القصيدة الخالدة التي لم يكتب مثلها عن النيل، والتي غنتها السيدة أم كلثوم، فبعثت فيها خلوداً فوق خلود.

وفجأة انهار شوقي وتهاوى، ولم تعد ساقاه تستطيعان حمله، وقال لزكي مبارك: احملني!.

فحمله، كما يحمل الطفل، وعاد به إلى السيارة. ويقول زكي مبارك: إن شوقي طفل، وإنه أخف في وزنه من ريش النعام، وكان شوقي يبكي بكاء الطفل ويغمغم: "من أي عهد في القرى تتدفق....". وكانت المرة الثانية التي حمل زكي مبارك أحمد شوقي على كتفه هي يوم جنازة شوقي، فقد تقدم الدكتور زكي مبارك، والدكتور أحمد زكي أبو شادي، وغيرهما.... وحملوا النعش على أكتافهم، وقال زكي مبارك مرة أخرى: إن نعش شوقي كان أخف من ريش النعام.

وفي سياق هذه الإضاءة... لا بدّ لنا من الوقوف عند شعره الفكاهي:

من الشخصيات التي كانت مثار الاهتمام الصحفي والأدبي، الدكتور محجوب ثابت "١٨٨٤ ـ١٩٤٥"، فقد كان فضلاً عن علمه الوافر يمتاز بروح مرحة ودعابة طريفة... وكان يطمح إلى تقلد إحدى الوزارات.

كان محجوب ثابت يكره المداعبة حين تجرح، وكانت أكثر الدعابات الجارحة تأتيه من شوقي... كان شوقي يعرف نقطة ضعفه، فكان يحمل إليه دائماً أنباء لا تسره: ((كم أنت ضائع الحق يا محجوب، إن صاحبك النقراشي اعترض

على تعيينك وزيراً للصحة، ولم يهدأ له بال إلاّ بعد أن حذف اسمك من قائمة الوزارة)). ويصدّق الدكتور محجوب ثابت الدعابة، وينطلق يسب النقراشي، ثم يدرك بعد أيام أن شوقي خدعه، وأنه كان ضحية مؤامرة مدبرة... ولكن إدراكه أن شوقي يخدعه كان لا يمنعه من أن يصدق نفس الرواية إذا عاد شوقي وقصها عليه، وقد ظل شوقي أكثر من خمسة أعوام يحمل إلى الدكتور محجوب نبأ اختياره وزيراً للصحة، ثم اعتراض بعض الوزراء على هذا التعيين... وظل محجوب ثابت خلال هذه السنوات الطويلة يصدق شوقي في كل مرة، ثم يكتشف كل مرة أنها كانت خدعة، على حد رواية الأديب محمود السعدني، وأنه كان ضحية مكيدة مدبرة... وكان محجوب يغضب أياماً ثم تصفو نفسه، فيعود إلى شوقي، ولكن شوقي هجاه بقصيدة فكاهية جعلت محجوب يقرر الدخول مع شوقي في معركة طاحنة، وأعلن أنه سيعري شوقي أمام الناس، وأنه سيكشف عن سرقاته الشعرية، وسيميط اللثام عن جهل شوقي، وسيجعل فيه عبرة لمن يرى، وفعلاً، يكتب الدكتور محجوب مقالاً نارياً في هجاء شوقي يبعث به إلى جريدة الأهرام، ولكنه يعود عن قراره فيتصل بالأهرام في المساء طالباً من رئيس التحرير فيها عدم نشر المقال، فقد خشي أن يؤدي نشره إلى قطيعة أبدية بينه وبين شوقي، وكانت القصيدة التي أهاجت محجوب وأغضبته:

براغيـــث محجـــوب لم أنـــسها

ولم أنـــس مـــا شـــربت مـــن دمـــي

تـــشق خراطيمهـــا جـــوربي

وتنفـــذ في اللحـــم والأعظـــم

وتنظرهـــا حـــول بيـــب الـــرئيس

وفي شـــاربيه وحـــول الفـــم

بـــــواكير تطلـــــع قبــــل الــــــشتاء
فتحمــــــــل ألويـــــــة المواســـــــــم

قـــــد انتــــــشرت جوقـــــة جوقـــــة
كمـــــا رشــــت الأرض بالسمـــــــسم

ترحــــب بالـــــضيف عنـــد الطريــــق
فبــــــاب العيــــــــادة فالـــــــــسلم

بين شاعرين

كانت هناك فوارق ين حياة أحمد شوقي وحياة حافظ ابراهيم، وهي شديدة الشبه بالفوارق بين جوته وشيللر. فقد كان جوته وشوقي من الأغنياء وكان شيللر وحافظ من الفقراء. ولكن آلهة العبقرية لا تعرف الغنى والفقر. وقد عُرف عن شوقي أنه كان يستحم بالكولونيا وماء الورد، ولا يستحم بالماء، على حين كان يحلو لحافظ ابراهيم أن يعيش حياة أبناء البلد، فيرتدي الجلابية والمعطف في غالب الأحيان، ولا يرتدي البدلة إلاّ في المناسبات، وكان ينتقل في القاهرة على عربة الترام بالدرجة الثانية، عندما كان أجر الركوب ستة مليمات.

لم تكن لشوقي شلة من الأصدقاء، لكنه كان يستقبل ضيوفه في قصره استقبالات شبه رسمية: في حفلات شاي، أو أمسيات كوكتيل، أو عشاء. كما كان يستقبل بعض الأدباء والصحفيين في مكتبه. أو يجلس مع بعض أصدقائه في المحال الراقية. وكان قليل الكلام سارحاً في ملكوت الله.

أما حافظ ابراهيم فقد كانت له أكثر من شلة، ونكت رائعة رويت عنه، ولكنها لم تسجل. وكان يشاركه في النكت والتنكيت الشيخ عبد العزيز البشري، ومحمد البابلي، وكان ثلاثتهم في جيلهم فرسان الفكاهة...

هذا هو الجو الذي كان يعيش، جو المرح والفكاهة والنكتة، على خلاف شوقي الذي كان يعيش حياة القصور.

أما حافظ ابراهيم فقد كان بوهيمياً منطلقاً. فلا بيت ولا زوجة ولا أولاد، ولا علاقات عائلية وليس له نظام في حياته إلاّ مع أصدقائه وأشهرهم: محمد البابلي، ومحمد المويلحي، وصادق رستم وبيرم التونسي.

وماذا نقول عن أمير الشعراء وشاعر العروبة أحمد شوقي. إن معظم ما تقرؤه له ظريف يعبق باللطف والطرافة والجِدَّة... ولو شاء أن يكتب شيئاً لا ظرف فيه لاستعصى عليه ما أراد إنه رسول الحياة، كما وصفه الأديب أحمد عبد المجيد.

وهو يجمع ثلاث صور في نفس واحدة. إنه شاعر نهج البردة الذي قال:

ريمٌ على البقاع بين البان والعلم

أحلَّ سفك دمي في الأشهر الحُرُمِ

إلى أن يناجي الرسول العربي صلى الله عليه وسلم، بقوله في نجواه الطاهرة:

سَرَتْ بشائر بالهادي ومولده

في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم

إلاّ على صنم قد هام في صنم

وهو نفسه، رسول الحياة وترجمان ما بها من متع ولذائذ، والداعي لما تشتاقه النفس من هذا النعيم قبل أن يولّى العمر، ويذبل الشجر ويذوي الزهر. وهو يقول في حلبة رقص وفي كأس:

حفَّ كأسها الحبب فهي فضة ذهب

ثم يهرب من واقع ما يأمر به الدين الحنيف فيفرغ إلى المتعة:

رمـــضان ولّــــى هاتهـــا يـــا ســـاقي

مـــــشتاقة تـــــسعى إلى مـــــشتاق

ثم نراه في صورة ثالثة، كالروح الشفيفة التي ترِفُّ وتملأ الحياة دعابة لطيفة، كأنها رفيف الفراشة أو نسمة الربيع. فتراه يصف لحية وعيادة الدكتور محجوب ثابت التي أوت إليها البراغيت، وقد أشرنا إلى هذه القصيدة في إحدى الصفحات التي سبقت هذه الصفحة.

ولأحمد شوقي آثار مختلفة أراد أن يحذو فيها حذو كتّاب العرب كتّاب الإفرنج فكان كثير الإنتاج. له ديوان شعر سمّاه "الشوقيات" في أربعة أجزاء، كما له مسرحيات شعرية: مصرع كيلوباترا، مجنون ليلى، علي بك الكبير، وأميرة الأندلس، وعنترة، والست هدى، والبخيلة.

وعندما بدأ شوقي يكتب مسرحياته الشعرية، لم يكن ثمة كاتب ناثر أو شاعر عربي قد قدّم شيئاً واضحاً في هذا الإطار... لم تنشر المسرحية العربية في ذلك الوقت في صحيفة أو مجلة أو كتاب. ولم يجرؤ كاتب على أن يقدم عملاً متكاملاً ذا معنى واتجاه. ولذلك وجب التشديد على الأهمية الكبرى لمسرحيات شوقي الشعرية، في مسيرة وتطور الأدب المسرحي العربي.

ولم يفت شوقي أن يتقدم أكثر فأكثر من روح المجتمع الذي يحيا فيه، كأي مبدع كبير، فعالج القضايا الإنسانية والاجتماعية في عمله الأخيرين الست هدى، والبخيلة، وبذلك خرج منصرفاً عن شخوص الحكّام والملوك إلى إطار أرحب هو إطار الجماهير.

وهو في مسرحياته الشعرية شاعر أكثر منه رجل مسرح.. تغلبه طبيعة الشاعر أكثر مما تشده طبيعة رجل المهنة. فلم يحاول أن يكون مسرحيّاً بمعنى الكلمة أو مسرحيّاً وشاعراً معاً كشكسبير، وترك لشاعريته الحبل فامتد طوال مسرحياته، فكان شاعراً رومانسيّاً أفاض في انفعالاته وتهويماته وانساب في غنائيته وكان شاعراً كلاسيكياً في نفس الوقت حين حافظ على الشكل واستغل عُقَدَ الصراع

بين متعارضين معتلياً منبر الخطابة الذي هو خشبة المسرح ليهز سيف عنترة أو ليفجر أسى قيس، أو ليشعل شبق كيلوباترة بحيث يمكن استقطاع قصائد كاملة من مسرحياته لتكون شعراً غنائياً يروى ويغنى.

((وكان من أهم ما وجه إلى شوقي من نقد أنه استخدم أوزان الشعر الغنائي وقوافيه ورواسبه اللفظية والخيالية، وأطال في الحوار ببعض المواضع حتى خرج عن وظيفته المسرحية)).

فلم يحفل شوقي بقواعد المسرح كثيراً وغلبه الشعر على أمره واكتفى مما شاهده في بعثته بباريس من مسرحيات موليير وكوريني وراسين، ولكنه بلا شك... كان له السبق في ارتياد حقل المسرح كفن جديد عَزَّزَ به شاعريته ولقبه وتوج به سنواته الأخيرة، على حد رأي الأديب الناقد فتحي سعيد.

وبكلمات قليلة فإن أمير الشعراء أحمد شوقي، عبقرية شعرية نادرة وفذة، لن يجود الدهر بمثلها، حيث أعاد إلى الكلاسيكية الشعرية العظمة والشموخ والروعة، والنغمة الموسيقية الشجية، التي هي سحر الشعر العربي وعطره، كما خلص الشعر العربي الحديث، آنذاك، من الإسفاف والركاكة والانحدار، ولا غرابة في ذلك فقد اقتبس وتمثل روح شعرائنا المتقدمين أمثال: المتنبي، والبحتري، والنواسي، وابن زيدون

وبذلك أغنى ديوان الشعر العربي الخالد، بميراثه الشعري أكثر من كل شاعر كان ينسج على منواله، أي على طريقة الشعراء المتقدمين، مع التنويه بأن أحمد شوقي ظهر في عصر انقطعت فيه الصلة بالقديم، فكان دوره أن يرجع بنا إلى الماضي الزاهي بلغة تتماشى وذوق العصر ومفاهيمه الجديدة، فكان له فضل تثبيت اللغة المناسبة لعصره، دون أن يقع بصورة فجة في أسر الكلمات الوحشية، أو المهجورة، التي تنام غافية في صفحات القواميس.

شوقي في مرآة نفسه

بقلم أحمد شوقي

الحمد لله الذي علم البيان. وجعله أثراً من روحه عند الإنسان. والصلاة والسلام على نبي الأمة. القائل أن من الشعر لحكمة، (أما بعد) فما زال لواء الشعر معقوداً لأمراء العرب وأشرافهم. وما برح نظمه حبيباً إلى علمائهم وحكمائهم. يمارسونه حق المراس. ويبنون كل بيت منه على أمتن أساس. موفين إجلاله حافظين خلاله. مدنين إلى الأذهان خياله.

قاله امرؤ القيس واصفاً وحاكياً. وضاحكاً وباكياً وناسباً وغازلاً. وجداً وهازلاً. وجمع شمله بحيث تعد المنظومة الواحدة له أثراً في البيان مستقلاً وبنياناً قائماً برأسه.

ونظمه أبو فراس فخراً عالياً. ونسيباً غالياً. وحكماً باهرة. وأمثالاً سائرة. لكنه لم يقله فوضى ولا قرب في نظمه الخلط فإن قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر

أما للهوى نهي عليك ولا أمر

ليست إلاّ عقداً توحد سلكه وتشابهت جواهره ودق نظامه. تعاونت فيه ملكة العربي وسليقة الشاعر على حسن الحكاية. فإذا فرغت من قراءتها فكأنك قد قرأت أحسن رواية. وهذا وكونها أشبه شيء بالشعر في شعور الأنفس هما سر بقائها متلوة إلى الأبد.

وكان أبو العلاء يصوغ الحقائق في شعره ويوعى تجارب الحياة في منظومه ويشرح حالات النفس ويكاد ينال سريرتها ومن تأمل قوله من قصيدة:

فــلا هطلــت علــي ولا بأرضــي   ســحائب لــيس تنــتظم الــبلادا

وقابل بين هذا البيت، وبين قول أبي فراس:

معللــــتي بالوصـــــل والمــــوت دونــــه

إذا مـــت ظمآنـــاً فـــلا نـــزل القطـــر

ثم نظر إلى الأول كيف شرع سنّة الإيثار وبالغ في إظهار رقة النفس للنفس وانعطاف الجنس نحو الجنس وإلى الثاني كيف وضع مبدأ الأثرة وغالى بالنفس ورأى لها الاختصاص بالمنفعة في هذه الدنيا، تعيش فيها جافية ثم تخرج منها غير آسية. علم أن شعراء العرب حكماء لم تغرب عنهم الحقائق الكبر ولم يفتهم تقرير المبادئ الاجتماعية العالية وأنهم أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان وإظهارها في أجلى وأجمل صور البيان.

وكان أبو العتاهية ينشئ الشعر عبرة وموعظة، وحكمة بالغة موقظة وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يرجع إليه في الوعظ والإرشاد والتحذير من الرذائل. والإغراء بالفضائل.

وكان الشافعي رحمه الله وهو القائل:

ولــولا الــشعر بالعلمــاء يــزري   لكنــت اليــوم أشــعر مــن لبيــد

تجري ألفاظه بالشعر وله مقاطيع مختارة. وحكم في الناس سيارة. وحسبك أن الطب جميعه لو جمع لما خرج عن البيتين المنسوبين إليه وهما:

ثــــلاث هــــن مهلكــــة الأنــــام   وداعيــــة الــــصحيح إلى الــــسقام

دوام مدامـــــــــــــة ودوام وطء   وإدخـــال الطعـــام علـــى الطعـــام

ولو انفسح لهؤلاء وأمثالهم المجال من الزمان والمكان وشهدوا عصر البخار كما نشاهده. وكابدوا الدهر في الهرم مثلما نكابده. لامتلأت الصدور من محفوظ أشعارهم ولضاقت المطابع على تنافسها عن نشر آثارهم.

قدمنا هذا ليعلم به فريق يحتقرون الشعر وآخرون منا معشر الشبان يضمرون للعربي منه عداوة من جهل الشيء ويرون بينه وبين الشعر الإفرنجي بعدما بين المشرق والمغرب ناسين أن العرب أمة قد خلت ودولة تولت فلا ينبغي أن يؤخذوا إلاّ بما تركوا وأن المسؤول عن خروجه بعدهم إنما هو الخلف المفرط والوارث المتلاف.

اشتغل بالشعر فريق من فحول الشعراء جنوا عليه وظلموا قرائحهم النادرة وحرموا الأقوام من بعدهم. فمنهم من خرج من قضاء الفكر والخيال ودخل في مضيق اللفظ والصناعة. وبعضهم آثر ظلمات الكلفة والتعقيد على نور الإبانة والسهولة. ووقف آخرون بالقريض عند القول المأثور ((القديم على قدمه)) فوصفوا النوق على غير ما عهدها العرب عليه وأتوا المنازل من غير أبوابها ودخلوا البيداء على سراب. وانغمس فريق في بحار التشابيه حتى تشابهت عليهم اللجج ثم خرجوا منها بالبلل. وزعمت عصبة أن أحسن الشعر ما كان في واد والحقيقة في واد، فكلما كان بعيداً عن المواقع. منحرفاً عن المحسوس. مجانباً للمحتمل. كان أدنى في اعتقادهم إلى الخيال. وأجمع للجلال والجمال. حتى نشأ عن ذلك الإغراق الثقيل على النفوس والغلو البغيض إلى العقول السليمة.

على أن الكل قد مارسوا الشعر فناً على حدة. واتخذوه حرفة وتعاطوه تجارة إذا شاء الملوك ربحت وإذا شاءوا خسرت. ثم لم يكفهم ذلك حتى هجوا الشعر وذموه بكل لسان فزعموه مجلبة الشقاء وقالوا إنه محسوب على الشعراء يفيض من أرزاقهم وينحت من قلوبهم ويعرضهم لإراقة ماء الوجوه ولقد والله زعموا صدقاً وقالوا حقاً وإن هذا لجزاء قوم يتوقعون أرزاقهم من ملوك كرام يخلقهم الله لرواج حرفتهم فإذا لم يخلقوا كسدت الحرفة وأخطأت الأرزاق على أنه يستثنى من هؤلاء قليل لا يذكر في جنب الفائدة الضائعة بضياع الشعر مديحاً في الملوك والأمراء. وثناء على الرؤساء والكبراء. وإلاّ فمن دواوينهم ما يخلق أن يكون المثال المحتذى في شعر الأمم، كابن الأحنف مرسل الشعر كتباً في الهوى ورسائل ومتخذه رسلاً في الغرام ووسائل وكابن خفاجة شاعر الطبيعة ومجنون ليلاها. وواصف بدائعها وحلاها. وكالبهاء زهير سيد من ضحك في القول وبكى. وأفصح من عتب على

الأحبة واشتكى. وحسبك أنه لو اجتمع ألف شاعر يعززهم ألف ناثر على أن يحلوا شعر البهاء أو يأتوا بنثر في سهولته لانصرفوا عنه وهو كما هو.

ولا أرى بداً من استثناء المتنبي مع علمي أنه المداح الهجاء. لأن معجز لا يزال يرفع الشعر ويعليه. ويغري الناس به فيجدده ويحييه. وحسبك أن المشتغلين بالقريض عموماً والمطبوعين منهم خصوصاً لا يتطلعون إلاّ إلى غباره ولا يجدون الهدى إلاّ على مناره. ويتمنى أحدهم لو أتيح له ممدوح كممدوحه ليمدحه مثل مديحه أو لو وقع له كافور مثل كافوره ليهجوه مثل هجائه فمثل أبي الطيب في تشبه الشعراء به وسعيهم لبلوغ شأوه في المدح أو الهجو كمثل قائد مشهور الأيام. معروف بالحزم والإقدام. قد أشربته قلوب الجند وملئت نفوسهم ثقة منه فلو قذف بهم في مهاوي الهلاك وهم يعلمون لما جبنوا ولا أحجموا. هذا مع اعترافي بأن المتنبي صاحب اللواء. والسماء التي ما طاولتها في البيان سماء. ولو سلم من الغرور وسلم الناس من لسانه لأجللته إجلال الأنبياء.

والحاصل أن إنزال الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح ولا تقوم بغيره تجزئة يجل عنها ويتبرأ الشعراء منها. إلاّ أن هناك ملكاً كبيراً ما خلقوا إلا ليتغنوا بمدحه ويتفننوا بوصفه ذاهبين فيه كل مذهب آخذين منه بكل نصيب وهذا الملك هو الكون، فالشاعر من وقف بين الثريا والثرى. يقلب إحدى عينيه في الذر ويجيل أخرى في الذرى. يأسر الطير ويطلقه. ويكلم الجماد وينطقه. ويقف على النبات وقفة الطل. ويمر بالعراء مرور الوبل. فهنالك ينفسح له مجال التخيل ويتسع له مكان القول ويستفيد من جهة علماً لا تحويه الكتب ولا توعيه صدور العلماء ومن جهة أخرى يجد من الشعر مسلياً في الهم. ومنجياً من الغم. وشاغلاً إذا أما الفراغ ومؤنساً إذا تملكت الوحشة. ومن جهة ثالثة لا يلبث أن يفتح الله عليه فإذا الخاطر أسرع والقول سهل والقلم أجرى والمادة أغزر بحيث لا تمضي السنون حتى تتداول الأيدي مؤلفاته. وإذا مات أكبر الناس من بعده مخلفاته. أو لم يكن من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبي مثلاً حياته العالية التي بلغ فيها إلى أقصى الشباب ثم يموت عن نحو مائتي صحيفة من الشعر تسعة أعشارها لمدوحيه والعشر الباقي وهو الحكمة والوصف للناس.

هنا يسأل سائل وما بالك تنهى عن خلق وتأتي مثله فأجيب أني قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم ولا أجد أمامي غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها. وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء. والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلاّ ما كان مدحاً في مقام عال ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الأسمى في البلاد. فما زلت أتمنى هذه المنزلة وأسمو إليها على درج الإخلاص في حب صناعتي وإتقانها بقدر الإمكان وصونها عن الابتذال حتى وفقت بفضل الله إليها ثم طلبت العلم في أوربا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم وعلمت أني مسؤول عن تلك الهبة التي يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه وأني لا أؤدي شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها التي لا تحد ولا تنفذ وإذ كنت أعتقد أن الأوهام إذا تمكنت من أمة كانت لباغي إبادتها كالأفعوان. لا يطاق لقاؤه ويؤخذ من خلف بأطراف البنان جعلت أبعث بقصائد المديح من أوروبا مملوءة من جديد المعاني وحديث الأساليب بقدر الإمكان إلى أن رفعت إلى الخديوي السابق في قصيدتي التي أقول في مطلعها:

خدعوها بقولهم حسناء   والغواني يغرهن الثناء

والتي غزلها في أول هذا الديوان. وكانت المدائح الخديوية تنشر يومئذ في الجريدة الرسمية وكان يحررها يومئذ أستاذي الشيخ عبد الكريم سلمان فدفعت القصيدة إليه وطلب منه أن يسقط الغزل وينشر المدح فود الشيخ لو أسقط المديح ونشر الغزل ثم كانت النتيجة أن القصيدة برمتها لم تنشر فلما بلغني الخبر لم يزدني علماً بأن احتراسي في المفاجأة بالشعر الجديد دفعة واحدة إنما كان في محله وأن الزلل معي إذا أنا استعجلت.

ثم نظمت روايتي "علي بك أو فيما هي دولة المماليك" معتمداً في وضع حوادثها على أقوال الثقاة من المؤرخين الذين رأوا ثم كتبوا وبعثت بها قبل التمثيل بالطبع إلى المرحوم رشدي باشا ليعرضها على الخديوي السابق فوردني منه كتاب باللغة الفرنساوية يقول في خلاله:

((أما روايتك فقد تفكه الجناب العالي بقراءتها وناقشني في موضع منها وناقشته وهو يدعو لك بالمزيد من النجاح ويحب ألا تشغلك دروس الحقوق التي تمكنك تحصيلها وأنت في بيتك بمصر عن التمتع من معالم المدينة القائمة أمامك وأن تأتينا من مدينة النور (باريز) بقبس تستضئ به الآداب العربية)).

فصادفت هذه النصيحة العالية من أمير ذكي حكيم هوى في فؤادي مطوى على طاعته نازل على حكم الشعر والأدب فترجمت القصيدة المسماة "بالبحيرة" من نظم "لمرتين" وهي من آيات الفصاحة الفرنساوية. ثم أرسلتها إلى الباشا المشار إليه في كراس وبعض كراس ليطلع الجناب الخديوي عليها وإذ كنت لا أتخذ لشعري مسودات رجوت أني أجدها عنده بعد العودة إلى مصر ثم عدت دون ذلك عواد.

وجربت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب (لافونتين) الشهير وفي هذه المجموعة شيء من ذلك فكنت إذا فرغت من وضع أسطورتين أو ثلاث أجتمع بأحداث المصريين وأقرأ عليهم شيئاً منها فيفهمونه لأول وهلة ويأنسون إليه ويضحكون من أكثره وأنا أستبشر لذلك وأتمنى ولو وفقني الله لأجعل لأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المتمدنة منظومات قريبة المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم.

والخلاصة أني كنت ولا أزال ألوى في الشعر على كل مطلب. وأذهب من فضائه الواسع في كل مذهب. وهنا لا يسعني إلا الثناء على صديقي خليل مطران صاحب المنن على الأدب. والمؤلف بين أسلوب الإفرنج في نظم الشعر وبين نهج العرب والمأمول أننا نتعاون على إيجاد شعر للأطفال والنساء وأن يساعدنا سائر الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأمنية. على أني لا أستصعب في مصر اليوم صعباً بعدما علمت أن كثيراً من النساء في العاصمة أصبحن يرقبن ساعة ظهور الجرائد بصبر نافذ وأن إحداهن طردت خادماً لها أرسلته يشتري نسخة من جريدة فأبطأ مع علمه بأن مولاته لا تستطيع صبراً عن أخبار الحرب الترنسفالية. إذا فالواجب على الكتاب ورجال الصحافة في أولهم أن يهيئوا أسباب النجاح لهذا الميل الحادث وعلى الأدباء والشعراء أن يعرضوا فاكهتهم على النساء مثل الرجال حتى تصبح جنات

قرائحهم فيها من كل فاكهة زوجان.

بقي استدراك لا بد من إيراده وذلك أن بعضهم يستنتج من كون الناثر لا ينظم أن الشاعر لا ينثر كذلك ولا ينبغي له وهذا وهم يداني اليقين عندهم وقد جاوز الشعراء في الانخداع به حداً أضر بهم مع أنه يكفي للخروج منه أن نعلم أن أكثر ما أعجز به أدباء الإفرنج اليوم في القصص والإنشاء وما يمثل على أكبر ملاعبهم وتتداوله ألسنتهم من مرسل الكلم ومنثور الحكم وما كتب في هذا القرن والذي قبله في الفلسفة العليا والسياسة الكبرى إنما هو من قلم مشاهير الشعراء حتى لتسمع عن أحدهم أنه مات عن عشرات من المؤلفات ثم ترى المنظوم منها أقلها بل أن بعضهم يقدم "الأشقياء" وهو كتاب لفكتور هوجو على سائر مؤلفاته وفيها الشعر كما يرون "اعترافات ابن العصر" لألفريد دي موسيه أجل أثر له بين كثير من الآثار وفيها الروايات المنظومة والأشعار وكلا الشاعرين مطبوع لم يختلف في سليقته اثنان.

على أني كنت أول من انقاد بأزمة هذا الوهم وطالما أوذيت به فكنت إذا عرضت لي كتابة أشفق منها وأجفل عنها فصرت مثلي مثل الشاعر الفرنسوي الذي يحكى عنه أنه لما رأى أهل باريز يبالغون في الحفاوة به ويكثرون من دعوته إلى موائدهم ومجالسهم ليسمعوا حديثه على ظن أنه يقول ما لا يقوله الناس بلغ به الاحتراس منهم إلى أن كان إذا دعي إلى وليمة حضر والقوم على المائدة فأكل صامتاً ثم انصرف والقوم لم يفرغوا من الطعام فقيل له في ذلك. فقال لهم أنا على المائدة كأحدكم فإذا جلست إزاء مكتبتي فتصوروني كيف شئتم.

أما كون الناثر لا ينظم إلا إذا كان حاصلاً على هذه الملكة الموهوبة فحقيقة لا مشاحة فيها وإن لم يكن بذلك عار على الكاتب بل الغبن الفاحش والخسران المبين أن تضيع حياة الكثيرين من الكتاب والعلماء وليست بقليلة الثمن في محاولة المحال والتمادي في مثل هذا الضلال على أن الشعر ليس من حاجيات العمران المادي الذي تتوقف عليه سعادة الإنسان في هذه الحياة الدنيا ولكنه من كماليات العمران الأدبي الذي تسأم النفس عنده الحقيقة المجسدة. والمادة المجردة. وتميل في بعض أوقاتها إلى التنقل بشعورها من عالم إلى آخر ومن فضاء إلى سواه ولعل هذه هي

الحكمة في كون الشعراء قليلاً عديدهم في كل زمان ومكان لا تعطى الأمم منهم إلاّ بقدر حاجتها إليهم ومما يجمل إيراده في هذا المقام أنه بدا لأحد الانكليز أن تكون عنده مجموعة فيها من كل شاعر عصري شيء من نظمه بخطه فجعل يطوف بها على مشاهير الشعراء حتى وفد على جول سيمون فقيد فرنسا وفيلسوفها المشهور فطلب منه أن يكتب شيئاً من نظمه فاعتذر الرجل بكونه ما نظم قط لا يملك قول الشعر فما زال الانكليزي يلح عليه حتى أحرجه وكان جول سيمون يحفظ أبياتاً للشاعر الشهير لمارتين وكانت أحسن ما في منظومته التي سماها "البحيرة" فأخذ المجموعة وكتب الأبيات ثم جعل اسمه تحتها واتفق بعد ذلك أن المجموعة وقعت في يد منتقد أدبي لبعض الصحف السيارة في باريز وكان لا يعرف الشعر ولا يدري لمن هو فلم يكن منه إلا أن ملأ أعمدة الجريدة من انتقادها ورمى جول سيمون بالدخول فيما لا يعنيه والتطفل على موائد الشعراء ثم نصح له أن يبقى فيلسوفاً كما كان ومن الفلسفة إلا يحاول الإنسان ما ليس في الإمكان.

يعلم مما تقدم جميعه أنني أرى للمشتغلين بالشعر من أبناء "الوطن العربي" أن يجمعوا في مسيرهم على الدرب بين أزواد ثلاثة لا وصول بدونها مجتمعه.

"الأول" ثقة الإنسان من كون الشعر في طباعه وهذا هو الشرط الأوجب وأنه لأمر يعنى الإباء والأساتذة أكثر من سواه ولا ينبغي لهم أن ينصرفوا في مستقبل الأطفال الذين هم أمانة الله في أيديهم بمقتضى أميالهم الشخصية وأفكارهم الخصوصية بل عليهم إذا آنسوا هذه الهبة عند الطفل أن يأخذوا بيده ويعينوه عليها ولو كانوا من ينظرون إلى الشعر بعين السخط لأن الله سبحانه وتعالى وهو الواهب قد رأى له ذلك وما يرى الله أفضل وإذا وجدوه دعياً في الشعر دخيلاً منذ الطفولة وجب عليهم تبغيضه إليه وممانعته عن نظمه ولو كانوا من محبي الشعر ونصرائه.

"والثاني" أخذ العلوم وتناول التجارب لأن الشعر لا يخرج عن كونه أخباراً وحكمة وهما لا يكونان إلا من عليم مجرب.

"والثالث" ألا يتخذ الشعر حلية على عطل من سائر أمور الدنيا وأشغالها فإن كان لا بد من التفرغ للأدب حباً به أو طلباً للكسب فليكن الشعر هو اليتيمة

القعساء في عقد علومه وصاحب العلم في موكب فنونه لا ينافي تعاطيه الكتابة نثراً في جميع المطالب وضروب المواضع فإنك لا تجد الشعر وسلطانه عندئذ إلا مرشدين أمينين وذخرين ثمينين.

فمن جمع بين هذه الأمور الثلاثة وكان عاملاً متقناً لعمله حريصاً عليه مترقياً فيه يخاف الله في الغرور ويخشاه في إيذاء خلقه فقد انكشف له سر النجاح وأحرز قصب السبق في حلبة الكتاب والشعراء.

* * * * *

الآن أدخل في الحديث مع فريق طلبوا مني أن أجعل صورتي في هذه المجموعة وآخرين رغبوا إليّ في كلمة تقال عنها وعن صاحبها وألا يقولها سواي.

معذرتي إلى الفريق الأول أن من يعرض صورته على الناس كمن يعرض وجهه عليهم وأعوذ بالله وبالمحبين أن أكون ذلك الرجل على أن صورتي ما عشت بينهم ينظرون إليها فإذا مت فليأخذوها من أهلي إذا جد بهم الحرص عليها.

وللآخرين أقول أني لا أزال في أول النشأة وأن حياتي لم تحفل بعد بالعجائب ولم تمتلئ من الفوائد ولا المصائب حتى أحدث الناس بأخبارها لكني لا أثق بيومي الآتي وأخاف بمدى رجوم الظن وضلات الأحاديث فلي العذر أن أجيب طلبهم على أن يكون الحديث بيني وبينهم كما يكون بين الأحباب.

سمعت أبي رحمه الله يرد أصلنا إلى الأكراد فالعرب ويقول أن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والي مصر محمد علي باشا وكان جدي وأنا حامل اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطاً وانشاء فأدخله الوالي في معيته ثم تداولت الأيام.وتعاقب الولاة الفخام. وهو يتقلد المراتب العالية. ويتقلب في المناصب السامية. إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية بددها أبي في سكرة الشباب ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم وعشت في ظله وأنا واحد أسمع بما كان من سعة رزقه ولا أراني في ضيق حتى أندب تلك السعة فكأنه رأى لي كما رأى لنفسه من قبل ألا أقتات من فضلات الموتى.

أما جدي لوالدتي فاسمه أحمد بك حليم ويعرف بالنجدة لي نسبة إلى نجدة إحدى قرى الأناضول وفد على البلاد فتياً كذلك فاستخدمه والي مصر ابراهيم باشا من أول يوم ثم زوجه بمعتوقته جدتي التي أرثيها في هذه المجموعة وأصلها من مورة جلبت منها أسيرة حرب لا شراء وكانت رفيعة المنزلة عند مولاها وكان زوجها محبوباً عنده كذلك فما زالا كلاهما مغمورين بنعمة هذا البيت الكريم حتى توفي جدي وهو وكيل لخاصة الخديوي اسماعيل باشا فأمر بنقل مرتبه برمته إلى أرملته وأن يحسب ذلك معاشاً لا إحساناً وكان الخديوي المشار إليه يقول عنهما "لم أر أعف منه ولا أقنع من زوجته ولو لم يسمه أبي حليماً لحلمه لسميته عفيفاً لعفته".

*   *   *   *   *

أنا إذاً عربي. تركي. يوناني جركسي بجدتي لأبي. أصول أربعة في فرع مجتمعة. تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبل. وما زال لمصر الكنف المأمول والنائل الجزل. على أنها بلادي. وهي منشأي ومهادي. ومقبرة أجدادي. ولد لي بها أبوان ولي في ثراها أب وجدان. وببعض هذا تحبب إلى الرجال الأوطان.

أما ولادتي فكانت بمصر القاهرة وأنا اليوم أحبو إلى الثلاثين حدثني سيد ندماء هذا العصر المرحوم (الشيخ علي الليثي) قال لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد فقص علي حلماً رآه في نومه. فقلت له وأنا أمازحه ليولدن لك ولد يخرق كما تقول العامة خرقاً في الإسلام.

ثم اتفق أني عدت الشيخ في مرض الموت وكانت في يده نسخة من جريدة الأهرام فابتدر خطابي يقول هذا تأويل رؤيا أبيك يا شوقي فو الله ما قالها قبل في الإسلام أحد قلت وما تلك يا مولاي قال قصيدتك في وصف "البال" التي تقول في مطلعها :

حف كأسها الحبب   فهي فضة ذهب

وما هي في يدي أقرأها. فاستعذت بالله وقلت له الحمد لله الذي جعل هذه هي "الخرق" ولم يضر بي الإسلام قتيلا.

أخذتني جدتي لأمي من المهد وهي التي أرثيها في هذه المجموعة وكانت منعمة موسرة فكفلتني وكانت تحنو علي فوق حنوهما وترى لي مخايل في البر مرجوة.

حدثتني أنها دخلت بي على الخديوي اسماعيل وأنا في الثالثة من عمري وكان بصري لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه فطلب الخديوي بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعت على الذهب اشتغل بجمعه واللعب فقال لجدتي اصنعي معه مثل هذا فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض قالت هذا دواء لا يخرج من صيدليتك يا مولاي قال جيئي به إليّ متى شئت إني آخر من ينثر الذهب في مصر.

ولا يزال هذا الارتجاج العصبي في الإبصار يعاودني وكان المرحوم الشيخ علي الليثي كما التقت عينه بعيني ينشد هذا المصراع للمتنبي:

"محاجر مسك ركبت فوق زئبق"

دخلت في مكتب الشيخ صالح وأنا في الرابعة وهي من أهلي جناية على وجداني أغفرها لهم ثم انتقلت منها إلى المبتديان فالتجهيزية فكنت التلميذ الثاني لهذه المدرسة وأنا في الخامسة عشرة وكان ناظرها المرحوم صادق باشا شنن قد حصل لي من النظارة على "المجانية" بوجه الاستثناء لا عن حاجة إليها ولكن على سبيل المكافأة ثم رأى لي أبي أن أدرس القوانين والشرائع فدخلت مدرسة الحقوق وكان ناظرها المأسوف عليه "فيدال باشا" لا يراني أهلاً لذلك بالسن فما زال أستاذي وصديقي المهذب يحيى بك ابراهيم وكيل المدرسة يومئذ يؤيدني عند رئيسه إلى أن قبلت ثم لم يكفه ذلك حتى حصل لي من النظارة على مائتي قرش في الشهر فدرست الحقوق سنتين ثم ارتأت الحكومة أن ينشأ بمدرسة الحقوق قسم للترجمة يتخرج فيه المترجمون الأكفاء فنصح لي الوكيل أن أدخل هذا القسم ففعلت...

وأقمت به سنتين ثم منحتني نظارة المعارف الشهادة النهائية في فن الترجمة وبينما أنا أتردد على المغفور له علي باشا مبارك في شأن ورد عليه مرسوم من المعية السنية بطلبي إليها فكان سروره بذلك أضعاف فرحتي بالنعمة المفاجئة فذهبت إلى السراي وهنالك استؤذن لي على المرحوم الخديوي توفيق باشا فلما مثلت بين يديه ولم أكن رأيته من قبل ولكن مدحته مراراً وأنا في المدرسة خاطبني بهذا اللفظ الشريف "قرأت يا شوقي في الجريدة الرسمية أنك أعطيت الشهادة النهائية وكنت أنتظر ذلك لألحقك بمعيتي لكن ليس بها الآن محل خال فهل لك الانتظار ريثما

يهيئ اللّه لك الخير" فاستلمت أذيال العزيز وقبلتها ثم قلت حسبي يا مولاي أنك قد ذكرتني من تلقاء نفسك الشريفة وأي خير يهيئ اللّه لعبدك أفضل من هذا فأطرق هنيهة ثم قال قد سمعت أن أباك عطل من الخدمة فبلغه أني ربما أدخلته في عمل قبلك ثم تهلل وأذن لي بالانصراف.

فلبثت في المعية بضعة شهور أنتظر فرجاً يأتي به اللّه وكان المرحوم علي باشا مبارك لم يقطع عني الراتب. إلى أن كان يوماً كثر غيمه وتثاقل مطره فخرجت قبيل الأصيل في حاجة لي على حمار أبيض كان لوالدي وبينما أنا عائد إلى منزلي أجتاز ميدان عابدين بصرت بالعزيز في بهو السراي يشرف منه فنزلت عن الدابة أمشي كرامة للمليك المطل وأمرت الخادم أن يبتعد بها وأن يلاقيني خلف القصر ثم مشيت على الأقدام حتى إذا انتهيت من الميدان اعترضني رسول من الأمير يدعوني إليه فوافيت حضرته وأنا لا أعرف السبب وكان معه ساعتئذ المرحوم عبد الرحمن باشا رشدي فتحلى الحليم بصورة الغضب ثم قال أليس لي أن أطل من بيتي حتى نزلت عن حمارك وألجأتني إلى الانثناء قلت عفواً يا مولاي هكذا أدبنا الأوائل حيث يقول شاعرهم:

وإذا المطـــي بنـــا بلغـــن محمـــداً

فظهـــورهن علـــى الرجـــال حـــرام

فتبسم ضاحكاً. ثم قال إنكم معشر الشعراء تتفاءلون بالغيوم فهذا اليوم من أيامكم فاسمع للباشا فإن عنده لك فألاً فالتفت الباشا عندئذ إلي وقال الآن أمرني أفندينا أن أبلغك تعيين أبيك مفتشاً في الخاصة الخديوية وأما أنت فتعين بعد شهر ثم مد العزيز إليّ يده فقبلتها واجماً قد غلب علي السرود حتى أنساني الشعر وكان ذلك وقته ثم لم يحل عليّ حول في الخدمة الشريفة حتى رأى لي الخديوي أن أبلغ التأديب في أوروبا فخيرني في ذلك وفيما أريده من العلوم فاخترت الحقوق لعلمي أنها تكاد تكون من الأدب وأن لا قدم فيها لمن لا لسان له فأشار الأمير علي عندئذ أن أجمع في الدراسة بينها وبين الآداب الفرنساوية بقدر الإمكان ثم سافرت على نفقته فكنت أنقد ستة عشر جنيهاً في الشهر نصفها من المعية ونصفها من الخاصة

وأعطاني يوم سفري مائة جنيه أرسل نصفها إلى مدير الإرسالية ليهيئ لي جميع ما أحتاج إليه حال وصولي ودفع إلي النصف الآخر بيده الشريفة وما أنس من مكارمه رحمة اللّه عليه لا أنس قوله لي في ساعة الوداع "لا حاجة بك منذ اليوم إلى أهلك فلا تعنتهم بطلب النقود وأعنت أباك هذا الغنى".

فركبت البحر لأول مرة أؤم مرسيليا فلما قدمتها وجدت مدير الإرسالية في انتظاري فأخبرني بأن الأمير يأمر بأن أقضي عامين في مدينة مونبلييه وآخرين في باريز وكان المدير قادماً من مونبلييه للقائي فعاد بي إليها على الفور وهنالك قدم لي جميع ما أحتاج إليه وأدخلني مدرسة الحقوق الجامعة ثم رجع إلى العاصمة. فلما انقضت السنة الأولى التمست من ولي النعم أن يأذن لي في الأوبة إلى مصر لقضاء زمن العطلة بين أهلي فأوقع إلي أمره أن هذا من نزق الشباب وأنه يرى لي أن أقيم أربع سنوات كاملة في أوروبا وألا أضيع منها دقيقة واحدة ثم أرسل إلي خمسين جنيهاً لأنفقها في رحلة أزمعها إلى أي بلد أشاء إلا مصر وكانت الدعوات قد توالت علي من الفرنساويين رفقائي في المدرسة بالذهاب إلى مدنهم المتفرقة في الجنوب وقضاء بعض الأيام في ضيافتهم هنالك فقضيت نحو شهرين كنت فيها قرير العين طيب النفس ناعم البال حيث التفت رأيت حولي مناظر رائقة. ومجالي شائقة ومعالم للحضارة في أقاصي القرى شاهقة وآثاراً لدولة الرومان. تزداد حسناً على تقادم الزمان وعرفت الفلاح الفرنساوي في داره وكنت ألقاه في مزرعته وأماشيه في الأسواق فيخيل لي أنه قد خلف العرب على قرى الضيف وإكرام الجار وكان أعجب ما رأيت مدينة "كركسون" وجدتها قسمين وألفيت القوم عليها صنفين فمنهم الباقون إلى اليوم كما كان عليه آباؤهم في القرون الوسطى بناؤهم ذلك البناء ولباسهم ذلك اللباس وعاداتهم وأخلاقهم تلك العادات والأخلاق والآخرون خلق جديد وشعبة كسائر شعب الأمة في أخذهم بأشياء التمدن العصري وبالجملة كانت نتيجة هذه النقل من أجل نعم اللّه علي وأسنى أيادي الخديوي السابق عندي.

ثم ما كنت أنتهي من السنة الثانية حتى كتب إلي مدير الرسالة المصرية يستقدمني لباريز ويخبرني أنه ذاهب بتلامذته إلى انكلترا لقضاء أكثر أيام العطلة

فيهـا وأن الأمـير رحمـه اللّه أدى نفقـة هـذه الـسياحة عـني إذا رغبـت فيهـا فبرحـت مونبلييه على عجل أيمم باريز للمرة الأولى فأقمت بها يومين ريثما أهبت للرحلة ثم سـافرنا إلى عاصـمة انكلترا فلبثنا فيها نحو شهر نغشى من معالمها في الحضارة ونشاهد من دوران دولاب التجارة والصناعة فيها ما ينتهي إليه العظم والجلال في هذا العصر لكنا لم نلبث أن سئمناها وهذا أكبر عيوبها فخرجنا إلى بعض المدائن على بحر الشمال وهناك وجدنا راحة الخاطر وقرة الناظر وأن يكن الجو كثير التقلب غداراً في غالب الأحيان فلما كانت السنة الثالثة وهي الأولى لي في باريز أصبت بمرض شديد كنت فيه بين الحياة والموت فاستخدمت ممرضة تسهر علي وتعمل بإشارتي في الحركة والسكنة فكنت أسمعها وأنا في سكرات الحمى تقول "أفي مثل هذا الشباب تذهبون" ثم تكفف الدمع لكن اللّه خيب ظنونها ومنّ علي بالشفاء وعندئذ أشار علي الأطباء أن أقضي أياماً تحت سماء إفريقيا على زعم أن الذي بي من الضجر والسآمة ليس إلا حنيناً للوطن فوقع اختياري على الجزائر فرحلت إليها مع أحد قضاتها الفرنساويين فنفعتني مرافقته وظل دليلي على الهدى عاصمة المستعمرة نحو عشرين يوماً ثم برحها إلى أوران.

أما جو الجزائر فلا يعدله بين الأجواء في صحوه وطيب نسمته مع توقد شمسه إلاّ جنوب فرنسا. ولم أتأثر فيها كتأثري من رؤية المصريين في القهاوي البلدية إذ أكثر أصحابها وغلمانها منهم وكان قد بلغهم جلوس مولانا الخديوي القائم عباس باشا على الأريكة المصرية فكنت أراهم فرحين بالنبأ وأسمعهم يدعون لسموه ولا عيب في الجزائر سوى أنها قد مسخت مسخاً فقد عهدت مساح الأحذية فيها يستنكف من النطق بالعربية وإذا خاطبته بها لم يجبك إلا بالفرنساوية على أن حركة العمران في المدينة عجيبة وآثار التمدن الفرنساوي بادية عليها ولكن المسلمين من أهلها لا يشاركون القوم في شيء من ذلك ولا يتهافت مترفوهم إلا على مضار التمدن وأسوائه فكأن حظنا واحد في كل مكان.

أقمت بالجزائر أربعين يوماً أو تزيد ثم حثثت الرحال عنها قافلاً إلى باريز وهناك تمت لي السنة الثالثة في الحقوق وحصلت على الشهادة النهائية فيها فرأى لي

الجناب العالي أيده الله أن أقضي في العاصمة ستة شهور أتمكن فيها من معرفة أشياء باريز وأهلها وقد كان في الدراسة ما يشغل عن ذلك وحول دونه ثم انقضت تلك المدة على ما رسم لي الرأي العالي أيده الله فعدت إلى الوطن وأنا نضو فراق. تهزني إليه الأشواق.

وفي سنة ١٨٩٦ للميلاد ندبني جنابه الفخيم لأنوب عن حكومته السنية في مؤتمر المستشرقين الذي كان انعقاده في مدينة جنيف عاصمة سويسرا.

فكانت خير فرصة تغتنم لمشاهدة هذه البلاد التي هي المجلى البديع لعروس الطبيعة فرحلت إليها وأقمت بها شهراً ثم انفض المؤتمر فبرحتها إلى بلجيكا لمشاهدة عاصمتها وزيارة المعرض الذي أقيم بمدينة انغرس في ذلك العام.

لما كانت السنة الماضية وكنت قد سئمت الحضر على أثر رمد طال أمده خرجت إلى الأستانة طلباً للعافية على ضفاف البسفور فأذن الله وكان ما رجوت وعدت من عاصمة الإسلام وأنا أعتقد أن خطرات النسيم فيها تفعل في أربعين يوماً ما لا يفعله طب الأطباء في أربعين شهراً.

هذه هي أيام صباي وخطوات شبابي وأوائل نشأتي أجبت عنها السائل ليعلم كيف انقضت وفيم أنفقت وأين ذهبت وأنا أستغفر الله لي ولأهلي ولمن ينظر إلى هذا الكتاب بعين الكريم المتجاوز أو المنتقد العدل.

جمعتني باريز في أيام الصبا بالأمير شكيب أرسلان وأنا يومئذ في طلب العلم والأمير حفظه الله في التماس الشفاء فانعقدت بيننا الألفة. بلا كلفة وكنت في أول عهدي بنظم القصائد الكبرى وكان الأمير يقرأ ما يرد عليه منها منشوراً في صحف مصر فتمنى أن تكون لي يوماً ما مجموعة ثم تمنى علي إذا هي ظهرت أن أسميها الشوقيات.

ثم انقضت تلك المدة فكأنها حلم في الكرى أو خلسة المختلس أو هي كما قلت:

صحبت شكيباً برهة لم يفز بها

سواي على أن الصحاب كثير

حرصـــــت عليهـــا آنــــة ثـــم آنـــة

كمـــا ضـــن بالمـــاس الكـــريم خـــبير

فلمـــا تــــساقينا الوفـــاء وتم لــــي

وداد علــــى كـــل الــــوداد أمــــير

تفـــرق جـــسمي في الـــبلاد وجـــسمه

ولم يتفـــــرق خــــاطر وضــــمير

هذا أصل التسمية سبقت به إشارة لا تخالف ودفعت إليه طاعة واجبة وأنا بين هاتين هدف للقال والقيل. يظن بي نسبة الأثر الضئيل. إلى الاسم القليل.

كانت وفاة والدي من نحو ثلاث سنوات فكان لي عجباً أن وجدت بين أوراقه شيئاً كثيراً من مشتت منظومي ومنثوري ما نشر منها وما لم ينشر قد كتب بعضها بالحبر والبعض الآخر بالرصاص والكل خط يد المرحوم وقد لفه في ورقة كتب عليها العبارة "هذا ما تيسر لي جمعه من أقوال ولدي أحمد وهو يطلب العلم في أوروبا فكنت كأني أراه. وإني آمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لأنه لا يجد بعدي من يعتني بشؤونه وربما لم يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب" فبينما أنا ذات يوم تعب بهذه الأوراق حيران لوصية الوالد كيف أجريها زارني صديقي مصطفى بك رفعت فحدثته حديثي فسألني أن أعيره الأوراق أياماً ثم يعيدها إلي ففعلت ثم لم يمضِ شهراً حتى بعث بها إلي وإذا هي قد نسخت بقلم مليح يؤيده ذوق صحيح. بحيث لم يبق إلا أن تدفع إلى المطابع فأخذتها وبودي لو وفيت صديقي المشار إليه حقه من شكر الصنع وأنا أقول في نفسي لئن صدق أبي في الأولى لقد ظلم في الثانية فإن الخير لا يزال في الناس.

على أن ما جمع في "الشوقيات" ثم طبع ليس هو كل ما قيل فقد أسقطت منه الكثير وعثرت على غيره ولكن في الزمن الأخير فأما ما أسقط عمداً فأكثره من قولي في زمن الصبا الذي لا يؤمن فيه على المرء الغرور. ولا يسلك الفتى فيه سبيلاً

إلا وهو مضلل عثور. وقد خشيت أن يقع مثل ذلك في أيدي الناشئة فأسأل عن سوء وقعه ويكون إثمه أكبر من نفعه لكني حرصت على إثبات بعض الشيء منه كما يحرص الإنسان على ذكر ما طاب من أيام الشباب وأما ما عثرت عليه والمجموعة في أيدي الطباع فلم يكن في الوسع أخذه لئلا يختلط الكتاب ويختل ترتيب الأبواب على أنه محفوظ لينشر في الجزء الثاني إن شاء الله تعالى مع سائر القصائد التي أقيلت بعد الإعلان عن الشوقيات ولم يتيسر إدخالها في أبواب هذا الجزء.

وقد عزمت بحول الله ومشيئته على أن أنشر في آخر كل عام هجري ما يحصل عندي من منظوم ومنثور ولو قل عدده وصغر حجمه وأن أجعل ذلك بمثابة أجزاء متتالية "للشوقيات" تسمى باسمها وتكون لها متممة.

أحمد شوقي

شهادات.... وآراء ذوقية

أحمد زكي عبد الحليم

يقف تاريخ الشعر العربي أمام شاعرين كبيرين، ليسلم لكل واحد منهما بلا جدال أو خلاف إمارة الشعر العربي...

والأميران هما: امرؤ القيس في العصر القديم... وأحمد شوقي في العصر الحديث...

ومن عجب أن في الحياة الخاصة لكل منهما ما يجعل منه أميراً، فقد كان امرؤ القيس ابن بيئة لاهية، وسليل بيت كبير من بيوت العرب، وفارس حياة وكلمة...

وكان أحمد شوقي من مواليد القصور، حيث نشأ وتربى في أحضان السلطان، وكان نظره معلقاً بالسماء عند ولادته وكأنه يبحث عن الوحي والإلهام منذ لحظاته الأولى في الحياة.

وليس غريباً بعد ذلك أن شوقي الذي نشأ في القصر، قد أصبح فيما بعد من روّاد الوطنية حيث أسهم في كل المواقف والأحداث بنتاج قريحته الذي يحمل فكره ورأيه، فضلاً عن موهبته الشعرية المتفوقة.

ولقد جاء علينا حين من الدهر، كنا ننظر فيه إلى أولئك الذين عاشوا حياة القصور، على أنهم ليسوا من أصوات هذا البلد. وكان هذا الموقف طبيعياً من ثورة يوليو التي أعلنت الحرب على الفساد، من اجل حياة أفضل لسواد الشعب. ولكن غير الطبيعي أن ننكر على إنسان حقه أو مكانته لمجرد موقعه، ففي قلب الأشواك تنبت وردة، وفي رمال الصحراء تخضر بقعة.

ولقد كان شوقي وردة نبتت في قصر، وبقعة خضراء في قلب رمال الماضي، ولذلك كان من الظلم لتاريخنا، قبل أن يكون من الظلم لشوقي نفسه، أن يضيع هذا الشاعر الكبير في معركة وأد الماضي وبناء الحياة الجديدة.

* * * * *

عباس محمود العقاد

ظهر لشوقي في أخريات أيامه وازداد ظهوره بعد وفاته، شعر كان يهمله جامعو الديوان وهو في اعتقادنا أحق باب فيه بالإثبات، لأنه الباب الوحيد الذي يحسب من شعر الملامح الشخصية بين سائر الأبواب... ذلك هو باب القصائد الفكاهية التي كان ينظمها شوقي ويطويها، ولم يكن يعرض لها في أوائل عهده بالنظم، إلاّ على غير احتفال منه في فلتات بعد فلتات.

من هذه القصائد ما نظمه في "المحجوبيات"، ومنها ما نظمه قبل ذلك بين فترة وفترة على غير انتظام، وبين أطراف هذه المحجوبيات قوله في سيارة الدكتور محجوب ثابت:

إذا حركها مالت	**على الجنبين منهارة**
وقد تحرن أحياناً	**وتمشي وحدها تارة**
ولا تشبعها عين	**من البنزين فوارة**
ترى الشارع في ذعر	**إذا لاحت من الحارة**
وصبيانا يضجون	**كما يلقون طيارة**

فهذه الفكاهات وأشباهها هي الباب الوحيد الذي ظهر فيه شوقي بملامحه الشخصية، لأنه أرسل نفسه فيه على سجيته، وانطلق من حكم المظهر والصنعة والقوالب العرفية التي تنطوي فيها ملامح الشخصية وراء المراسم والتقاليد.

* * * * *

محمد عبد الغني حسن

أدى الشاعر أحمد شوقي دوره في الشعر الخاص بالطبيعة، على قدر ما واتته مقدرته الفائقة على التصوير الفني، والصوغ الأنيق، والنقل المحكم عن الأصل

الذي يصوره. أما ما وراء ذلك من التعاطف المشترك بين الشاعر والطبيعة، فلم تكن كلاسيكيته المتأنية لتسمح له بالانطلاق والخروج على النهج القديم المألوف عند الوصافين للطبيعة من شعراء العرب. ومن يدري لعله أراد أن يترك لبعض الآتين من الجيل المقبل مجالا للتجديد.

* * * * *

مصطفى صادق الرافعي

شوقي هذا هو الاسم الذي كان في الأدب كالشمس من المشرق: متى طلعت في موضع فقد طلعت في كل موضع، ومتى ذكر في بلد من بلاد العالم العربي اتسع معنى اسمه فدلّ على مصر كلها كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة، مترادفات لا في وضع اللغة و لكن في جلال اللغة.

وكان حاسدو شوقي يحسبون أنه إذا أزيح من طريقهم ظهر تقدمهم، فلما أزيح من الطريق ظهر تأخرهم... وهذه وحدها من عجائبه رحمه اللّه.

* * * * *

شفيق جبري

لأحمد شوقي نواحٍ شتى: ناحية غنى فيها بالإسلام، وناحية غنى فيها بمصر وحديثها، وناحية غنى فيها بماضي العرب، وناحية غنى فيها بثورة الشام، وإني لأقتصر في مثل هذا الاستشهاد على ذكر النواحي دون غيرها، فلو حبس أحمد شوقي شعره على مدح الخديوي أو على مدح السلطان أو على وصف الطيارة أو الغواصة أو البوسفور، أفكان له هذه المنزلة في الشعر؟ إني أعتقد الاعتقاد كله أن أحمد شوقي لولا شعره الوطني وشعره القومي لما تمتع بما يتمتع به اليوم فالذي جعله في هذه المنزلة مجاراته للعصر الذي يعيش فيه من الناحيتين القومية والوطنية، فقد كان شعره صورة النزعة القومية في عصره، إنه لم يتملص من آثار بيئته وزمنه واجتماعه وتاريخه، فالزمن الذي عاش فيه إنما هو زمن استيقاظ الروح القومي في

مصر وغيرها من بلاد العرب المجاورة لها، وقد أعانه على تقوية هذا الروح تاريخ القوم الذي ينطق بلغتهم. والتاريخ واللغة أقوى العوامل في تنبيه القوميات، فإذا كان أحمد شوقي شاعر هذا العصر فهذا سببه أنه يمثل العصر يقوله:

وطـــني لـــو شُـــغِلْتُ بالخلــــدِ عنـــه

نـــازعتْني إليــــه في الخلـــدِ نفــــسي

* * * * *

الشاعر علي الجارم

وكنت أعرف أن شوقي كثير القراءة، ولكنني لم أكن أظن أنه يعنى بقراءة الشعر في عصور تراجعه، حتى زرته يوما وكان مريضاً، وكانت حجرة نومه صغيرة قليلة الأثاث. دخلت عليه فإذا هو في سرير صغير، وقد بعثرت الكتب حوله عن يمين وشمال، فمددت يدي إلى أحدها فإذا هو " خزانة الأدب" لابن حجة الحموي، فسألته في استنكار: - أتقرأ أمثال هذه الكتب؟! إن أكثر ما فيها شعر صناعي ليس به إلا زخرف لفظي وبراعة في التزويق.

فابتسم وقال:

إن الشاعر يا أخي يجب أن يقرأ كل شعر، وأن هذا الكتاب كاسمه خزانة أدب وخير ما فيه شعر العصر المملوكي.

ثم اتجه نحوي يقول:

أتستهين بشعر المماليك؟

فقلت:

إنه لا يعدو أن يكون لعبا بألفاظ على حساب المعاني، وعناية بالنكتة والتورية.

فابتسم وقال:

إن شيئاً من ذلك لو عرض لي في شعري لعددته غنماً فنياً، إننا يا أخي فتنا

بشعر بغداد فأضعنا كثيراً من مقوّمات بيئتنا المصرية، وشعر المماليك شعر مصري صميم، وأن في ديوان ابن نباتة الذي نبذناه كبراً وتعاظماً العجب العجاب من روائع الفن وحلاوة الروح المصرية المرحة.

وكان هذا آخر العهد بصاحبي أحمد شوقي عليه الرحمة والرضوان، ولستُ أجد الآن في توديعه أبلغ مما قاله شوقي في توديع ورثاء حافظ ابراهيم:

اليـــوم هادنـــت الحـــوادث فـــاطرح

عـــبء الـــسنين والـــق عـــبء الـــداء

خلفـــت في الـــدنيا بيانـــاً خالـــداً

وتركـــت أجيـــالاً مـــن الأبنـــاء

وغـــداً ســـيذكرك الزمـــان ولم يـــزل

للـــدهر إنـــصاف وحـــسن جـــزاء

* * * * *

فتحي سعيد

لم يدخل شوقي المعترك السياسي إذَنْ كما دخله البارودي ومطران والعقاد والرصافي والزهاوي، مدخراً بذلك جهده وطاقته. وما كان شوقي ليظفر من وراء السياسة بمثل ما ظفر به من وراء الشعر.. حتى قصة نفيه للأندلس تحس فيها برومانتيكية أكثر مما تحس فيها بالمأساوية.. تشعرك بلذة التجوال أكثر مما تشعرك بعذاب النفي ـ بل لم يخض غمار أية حرب كما خاض المتنبي وأبو تمام معترك حروب كثيرة لسيف الدولة والمعتصم، وكما خاض البارودي الذي نفي لسرنديب النائية الموحشة ومكث بها سبعة عشر عاماً، حتى فقد البصر وأنهكته الشيخوخة والوحدة. ولم تدعْ صولة الحوادث منه غير أشلاء همة في ثياب.

ولسان حاله يقول:

لم أقــترف زلــة تقــضي علــيَّ بمــا

أصــبحت فيــه فمــاذا الويــل والحــرب؟

فهــل دفــاعي عــن ديــني وعــن وطــني

ذنــــب أدان بــــه ظلمــــاً وأغــــترب!؟

* * * * *

د. ميشال جحا

لا يستطيع أحد أن يُنكر مقدرة شوقي على النظم، وموهبته وذوقه وغنائيته، فكان بحق الشاعر الذي جدّد مجد الشعر العربي الكلاسيكي، وأعاد له رونقه، وأدخل عليه الشعر التمثيلي، فكانت بداية خير، وبلغت عنده "الكلاسيكية الجديدة" في الشعر العربي الحديث أعلى ذروتها.

* * * * *

د. أحمد زكي أبو شادي

لقد أثبت أحمد شوقي بألمعيته كفاية العربية لاستيعاب المعاني العصرية في أسلوب كلاسيكي ساحر، يمرح فيه الخيال، كما تتدلل الموسيقى والمعاني وتتألق الصور فتنة للقارئين.

* * * * *

محمد حسين هيكل

للأخلاق عنده المحل الأول وكثير من أبياته في هذا المعنى وقد أصبح مثلاً يتداوله كلُّ أستاذ وكلُّ تلميذ، ويردده الجميع على أنه الحكمة لا يأتيها باطل من

بين يديها ولا من خلفها ، أو لا ترى قوله:

وإنمـــا الأمـــم الأخـــلاقُ مـــا بقيـــت

فـــإن همـــو ذهبـــت أخلاقهـــم ذهبـــوا

وقد بلغ من تواتره على الألسن أن أصبح الكثيرون لا يعرفون إن كان لشوقي أو لشعراء العصور الزاهرة في أيام العرب.

*   *   *   *   *

أحمـد شوقـي

مختارات شعرية

نهج البردة

ريـــمٌ علـــى القـــاع بـــين البـــانِ والعلَـــمِ

أحَـــلَّ ســـفكَ دمـــي في الأشـــهر الحُـــرُم

رمـــى القـــضاءُ بعـــيني جـــؤذَر أســـداً

يـــا ســـاكنَ القـــاع، أدرِكْ ســـاكن الأجـــم

لمـــا رَنـــا حـــدّثتني الـــنفسُ قائلـــةً

يـــا ويْـــحَ جنبِـــكَ بالـــسهم المُـــصيب رُمـــي

جحـــدتها، وكتمـــت الـــسهم في كبـــدي

جُـــرْحُ الأحبـــة عنـــدي غـــير ذي ألم

يـــا لائمـــي في هـــواه ـــ والهـــوى قـــدر ـــ

لـــو شـــفَّك الوجـــدُ لم تَعـــذِل ولم تلـــم

لقـــد أنلْتُـــك أُذنـــاً غـــير واعيـــةٍ

ورُبَّ منتـــصتٍ والقلـــبُ في صَـــمم

يـا نـاعسَ الطـرفِ، لا ذقـتَ الهـوى أبـداً

أسـهرتَ مُـضناك في حفـظ الهـوى فـنم

يـا نفـسُ، دنيـاكِ تُخفـي كـلَّ مُبكيـةٍ

وإن بـدا لـكِ منهـا حُـسنُ مُبتَـسم

هامَـت علـى أثَـرِ اللـذاتِ تطلبُهـا

والـنفس إن يَـدْعُها داعـي الـصِّبا تَهـم

صـلاحُ أمـرِك للأخـلاقِ مرجِعـهُ

فقـوِّم الـنفسَ بـالأخلاق تـستقم

والـنفسُ مـن خيرِهـا في خـير عافيـةٍ

والـنفسُ مـن شـرها في مرتَـع وَخِـم

إن جَـلَّ ذنـبي عـن الغُفـران لـي أمـلٌ

في الله يجعلـني في خـير مُعتـصَم

أُلقـي رجـائي إذا عـزَّ المُجـيرُ علـى

مُفـرِّج الكـرب في الـدارين والغمَـم

إذا خفضتُ جناحَ الذُّلِّ أسأله

عِزَّ الشفاعةِ، لم أسأل سوى أمَم

وإن تقدّم ذو تقوى بصالحةٍ

قدّمت بين يديه عَبْرَةَ الندَم

لزِمتُ باب أمير الأنبياء، ومَنْ

يُمْسِكْ بمفتاح باب الله يغتنم

محمدٌ صفوةُ الباري ورحمتُه

وبغيَةُ الله من خَلْقٍ ومن نَسَم

ونوديَ: اقرأْ تعالى اللهُ قائلُها

لم تتصلْ قبلَ مَنْ قيلتْ له بفم

هناكَ أذّن للرحمنِ، فامتلأت

أسماعُ مكّةَ من قدسية النغم

سَرَتْ بشائِرُ بالهادي ومولِده

في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم

أتيـــتَ والنـــاسُ فوضـــى لا تمـــرُّ بهـــم

إلاّ علـــى صَـــنم، قـــد هـــام في صـــنم

أســـرى بـــك الله لـــيلاً، إذْ ملائكُـــه

والرُّســلُ في المسجدِ الأقـصى علـى قـدَم

لمـــا خطـــرتَ بـــه التفّـــوا بـــسيّدِهم

كالـشُّهْبِ بالبـدر أو كالجُنـدِ بـالعَلم

صـــلى وراءَك مـــنهم كـــلُّ ذي خطـــرٍ

ومـــن يفُـــز بحبيـــب اللهِ يـــأْتمم

مَـــشيئتهُ الخـــالق البـــاري وصَـــنعتُهُ

وقـــدرةُ الله فـــوق الـــشكِ والـــتُّهم

حتـــى بلغـــتَ سمـــاءً لا يُطـــارُ لهـــا

علـــى جَنـــاحٍ، ولا يُـــسْعَى علـــى قَـــدم

وقيـــل: كـــلُّ نـــبيٍّ عنـــد رتبتِـــه

ويـــا محمـــدُ، هـــذا العـــرش فاســـتلم

يا ربِّ هبتْ شعوبٌ من منيّتها

واستيقظت أُمَمٌ من رقْدة العدم

فالطُفْ لأجلِ رسول العالمين بنا

ولا تزدْ قومَه خسفاً، ولا تُسم

يا ربِّ، أحسنتَ بَدءَ المسلمين به

فتممِّ الفضلَ، وامنحْ حُسنَ مُخْتَتَم

أندلسية

"نظمها في منفاه بأسبانيا وفيها يحن للوطن العزيز، وقد اخترنا منها مقتطفات"

يا ساري البرق يرمي عن جوانحنا

بعد الهدوء ويهمي عن مآقينا

لما ترقرق في دمع السماء دما

هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا

الليل يشهد لم تهتك دياجته

على نيامِ ولم تهتف بسالينا

والنجم لم يرنا إلا على قدم

قيام ليل الهوى للعهد راعينا

كزفرة في سماء الليل حائرة

مما تردد في حين يضوينا

بـــالله إن جبـــت ظلمـــاء العبـــاب علـــى

نجائـــــب النـــــور محــــدداً (بجرينـــــا)

تـــــرد عنـــــك يــــداه كــــل عاديـــــة

إنـــــسا يعـــــثن فـــــساداً أو شـــــياطينا

حتـــى حوتـــك سمـــاء النيـــل عاليـــة

علـــى الغيـــوث وإن كانـــت ميامينـــا

وأحرزتـــك شـــغوف الـــلازوارد علـــى

وشـــي الزبرجـــد مـــن أفـــواه وادينـــا

وحـــازك الريـــف أرجـــاء مؤرّجـــة

ريـــت خمائـــل واهتـــزت بـــساتينا

وآس مـــا بـــات يـــذوي مـــن منازلنـــا

بالحادثـــات ويـــضوي مـــن مغانينـــا

ســقيا لعهــد كأكنــاف الربــى رفــة

أنّـــى ذهبنـــا وأعطـــاف الـــصبالينا

إذا لزمـــــان بنـــا غبنـــــاء زاهيـــــة

تـــــرف أوقـــا تنافيهـــا رياحينـــــا

الوصــــل صـــافية والعـــيش راغبـــة

والـــسعد حاشـــية والـــدهر ماشـــينا

والــشمس تختــال في العقبــان تحــسبها

(بلقـــيس) ترفـــل في وشـــي اليمانينـــا

والنيـــل يقبـــل كالـــدنيا إذا احتفلــت

لـــو كـــان فيهـــا وفـــاء للمـــصافينا

والـــسعد لـــو دام والنعمـــى لـــو اطـــردت

والـــسيل لـــو عـــف، والمقـــدار لودنيـــا

وهـــذه الأرض مـــن ســـهل ومـــن جبـــل

قبـــل القياصـــر بناهـــا فراعينـــا

ولم يـــضع حجـــراً بـــان علـــى حجـــر

في الأرض إلا علـــــى آثــــار بانينـــــا

كـــأن أهـــرام مـــصر حـــائط نهـــضت

بـــه يـــد الـــدهر لا بنيـــان فانينـــا

إيوانـــه الفخـــم مـــن عليـــا مقاصـــره

بفـــني الملـــوك ولا يبقـــى الأواوينـــا

كأنهـــا ورمـــالا حولهـــا التطمـــت

ســـــفينة غرقـــــت إلا أســـــاطينا

كأنهـــا تحـــت لألأة الـــضحى ذهبـــا

كنـــوز فرعـــون غطـــين الموازينـــا

يبكي والدته[1]

إلى اللّـهِ أشـكو مِـن عَـوادي النَّـوَى سـهماً
أَصــابَ سُــوَيْداءَ الفــؤادِ ومــا أَصْــمَى

مـــن الهاتكـــات القلـــبَ أَوَّلَ وَهلـــةٍ
ومَــا دَخَلَــتْ لحمــاً، ولا لامــستْ عظمــا

تَـــوَرَادَ والنَّـــاعِي، فأَوْجَـــسْتُ رَنَّـــةً
كلامــاً علــى سمعـي، وفي كبـدي كَلْمـا

(١) نظم أمير الشعراء هذه المرثية الرائعة، على أثر إعلان الهدنة، وهو في منفاه في الأندلس سنة ١٩١٨، إذ كان يعلل النفس بالعودة إلى الوطن العزيز ولقاء أهله، وفي مقدمتهم والدته الحبيبة، ولكنه ما كاد يتحدث إلى نفسه بهذا الأمل المرموق، حتى وافاه البرق بنعيها، فأثر هذا المصاب الجسيم في نفسه تأثيراً بالغاً، ولم تمض ساعة حتى كتب هذه المرثية، وقد قيل أنه من فرط تأثره بها تحاشى أن ينظر إليها بعد، فبقيت مستورة ضمن أوراقه الخاصة، حتى نشرت في الصحف غداة وفاته رحمه الله.

فمـا هتَفـا حتـى نَـزَا الجنـبُ وانـزَوَى
فيا وَيْحَ جَنْبِي! كم يَسيلُ؟ وكم يَدمَى؟

طَـوَى الـشرقَ نحـوَ الغـربِ، والمـاءَ للثَّـرَى
إلـيَّ، ولم يَركـبْ بِـساطاً ولا يَمَّـا

أَبـانَ ولم يَنْـبَسْ، وأَدّى ولم يَفُـهْ
وأَدْمَـى ومـا داوَى، وأَوْهَـى ومـا رَمَّـا

إذا طُوِيَـتْ بالـشُّهْبِ والـدُّهْمِ شُـقَّةٌ
طَـوَى الـشُّهْبَ، أَو جاب الغُدافِيَّـةَ الـدُّهْما

ولم أرَ كالأَحـداثِ سـهماً إذا جـرَتْ
ولا كالليـالي راميـاً يُبعِـدُ المَرْمَـى

ولم أَرَ حُكمـاً كالمقـاديرِ نافـذاً
ولا كلقـاءِ المـوتِ مِـنْ بَينهـا حَتْمـا

إلى حيـثُ آبـاءُ الفَتَـى يَـذهبُ الفتـى
سَـبيلُ يَـدينُ العـالمُون بهـا قِـدْما

ومـــا العـــيشُ إلا الجـــسمُ في ظـــلِّ رُوحِـــهِ
ولا المـــوتُ إلا الـــرُّوحُ فارَقـــتِ الجـــسما
ولا خلْـــدَ حتـــى تمـــلأَ الـــدهرَ حِكمـــةً
علـــى نـــزلاءِ الـــدهرِ بعـــدَك أو عِلْمـــا
زَجَـــرْتُ تَـــصاريفَ الزمـــامِ، فمـــا يَقَـــعْ
لـيَ اليـومَ منهـا كـان بـالأمسِ لـيَ وَهْمـا
وقـــدَّرتُ (للنعمـــانِ) يومـــاً وضِـــدُّهُ
فمـا اغْتَـرَّتِ البُوسَـى، ولا غـرَّتِ النُّعمـى
شـــرِبتُ الأَســـى مـــصروفةً لـــو تعرضـــتْ
بأْنفاســـها بـــالفمِّ لم يـــستفِقْ غَمَّـــا
فـــأتْرِعْ ونـــاوِلْ يـــا زمـــانُ؛ فإنمـــا
نـديمُكَ (سُـقراطُ) الـذي ابْتَـدَعَ الـسّمَّا
قَتلتُـــكَ، حتـــى مـــا أُبـــالي: أدَرْتَ لـــي
بكأْسِـــكَ نَجْمـــاً، أَم أدَرْتَ بهـــا رَجْمـــا؟!

لــــكِ اللهُ مِـــنْ مَطعونــــةٍ بقَنـــا النَّـــوى

شـــهيدةِ حـــربٍ لم تُقــــارِفْ لهـــا إنمـــا

مُدَلَّهــــةٍ أزكـــــى مِــــنَ النـــــارِ زَفْــــرةً

وَأنْـــزهِ مِـــنْ دَمْـــعِ الحَيـــا عَبْـــرة سَـــحْما

ســـقاها بَـــشيري وهْـــيَ تَبكـــي صَـــبابةً

فلــم يَقْــوَ مَغناهــا علــى صَــوْبهِ رَسْــما

أسَـــتْ جُرحهـــا الأَنبـــاءُ غـــيرَ رَفيقـــةٍ

وكــم نــازعٍ ســهماً فكــان هــو الــسَّهما!

تَغــارُ علــى الحُمَّــى الفــضائلُ والعُــلا

لِمــا قبَّلَــتْ منهــا، ومــا ضــمَّت الحُمَّــى!

أكانــــت تَمنّاهــــا وتَهــــوَى لِقاءَهــــا

إذا هــي سمَّاهــا بــذي الأرض مَــنْ سَــمى؟

ألَمَّـــــتْ عليهـــــا، واتَّقـــــتْ ثمراتِهـــــا

فلمـــا وُقُـــوا الأَسْـــواءَ لم ترَهـــا ذمَّـــا

فيـــا حـــــسرتا ألاَّ، تـــــراهم أهِلَّـــةً

إذا أقْــصرَ البــدرُ التمــامُ مَــضوا قُــدما!

رَيــاحينُ في أنـــف الـــوَليِّ، ومـــا لهـــا

عـــدوٌّ تـــراهم في مَعاطِـــسِهِ رَغْمـــا

وألاَّ يطوفـــوا خُـــشَّعاً حـــولَ نعـــشِها

ولا يُــشبِعوا الــركنَ اســتلاماً ولا لَثْمــا

حلَفْــتُ بمــا أســلَفتِ في المهــد مِــنْ يــدٍ

وأوْليــتِ جُثمــاني مــن المِنَّـــةِ العُظمــى

وقــــبرٍ مَنُـــوطٍ بـــالجلال مُقلَّـــدٍ

تلِيــدَ الخــلالِ الكُثــرَ، والطــارفَ الجَمَّــا

وبالغادِيــــاتِ الـــــساقياتِ نَزيلَـــهُ

مــنَ الــصَّلواتِ الخَمْــسِ، والآيِ، والأسْــما

لَمـا كــان لــي في الحــربِ رأْيٌ ولا هَــوىً

ولا رُمْــتُ هــذا الثكــلَ للنــاس واليُتمــا

ولم يــكُ ظلــم الطــيرِ بــالرقّ لــي رِضــاً

فكيــف رضــائي أن يَــرَى البَــشَرُ الظُّلمــا؟

ولم آلُ شُــبّانَ البريّــةِ رِقَّــةً

كــأَن ثمــارَ القلــب مِــنْ وَلَــدي ثَمَّــا

وكُنْــتُ علــى نَهْــجٍ مــن الــرأْي واضــحٍ

أرى النــاس صِــنْفينِ: الــذئابَ أو البَهمــا

ومــا الحُكــمُ إلا أُولِــي البــأْسِ دولــةٍ

ولا العــدلُ إلا حــائطٌ يَعْــصِمُ الحُكمــا

نزلْــتُ رُبــى الــدنيا، وجَنّــاتِ عَــدْنِها

فمــا وَجَــدَتْ نفــسي لأَنهارهــا طعمــا

أُرِيـــــحُ أرِجَ المِــــسكِ في عَرَصــــاتها

وإن لم أُرِحْ (مَــرْوانَ) فيهــا ولا (لَخْمــا)

إذا ضَـــحِكَتْ زهـــواً إلى سماوهـــا

بكيتُ النَّدى في الأرض، والبأسُ، والحزما

أطِيـــفُ برســـمٍ، أو أُلِـــمُّ بدِمْنَـــةٍ

أخـال القـصور الزُّهْـرَ والغُـرَفَ الـشُّما

فمـا برحَـتْ مـن خـاطري (مـصر) سـاعةً

ولا أنـتِ في ذي الـدارِ زايَلْـتِ لـي هَمّـا

إذا جَنَنِّـي الليـلُ اهْتَـزَزْت إليكمـا

فجنحـا إلى سُـعدَى، وجُنحـا إلى سَـلمى

فلمـا بـدا النـاس صُـبْحٌ مـن المُنَـى

وأَبـصرَ فيـه ذو البـصيرةِ والأعمـى

وقـرَّتْ سـيوفُ الهنـدِ، وارتكـز القَنـا

وأقْلَعـتِ البَلـوى، وأقـشَعَتِ الغُمَّـى

وحَنَّـتْ نـواقيسٌ، ورَنَّـتْ مـآذنٌ

ورَفَّـتْ وجـوهُ الأَرضِ تَـستقبلُ الـسلمى

أتى الدهرُ مِنْ دونِ الهناءِ، ولم يَزَلْ

وَلوعاً ببُنيانِ الرجاءِ إذا تَمّا!

إذا جال في الأَعيادِ حَلَّ نظامها

أو العُرسِ أبْلى في معالمه هَدْما

لئن فاتَ ما أَمَّلتهِ من مواكبٍ

فَدُونكِ هذا الحشدَ والموكبَ الضَّخما!

رثيْتُ به ذاتَ التُّقى ونظمتُه

لعنصره الأَزكى وجوهرِهِ الأسمى

نمتكِ مَناجيبُ العُلا ونمَيْتَها

فلم تُلحَقي بنتاً ولم تُسبَقي أُمَّا

وكنتِ إذا هذي السماءُ تخايلت

تواضعتِ، لكنْ بعد ما فُتِّها نَجما

أتَيْتِ به لم ينظم الشِّعرَ مثلُه

وجِئتِ لأَخلاق الكرامِ به نَظما

ولو نهضَتْ عنه السماءُ، ومَخَّضَتْ

به الأرضُ كان المُزنَ والتبْرَ والكَرْما!

نكبة دمشق

"قيلت في حفلة أقيمت لإعانة منكوبي سورية بتياترو حديقة الأزبكية سنة ١٩٢٦"

سـلامٌ مـن صَـبا (بَـردى) أرقُّ
ودمـعٌ لا يُكَفْكَـفُ يـا دِمَـشْقُ

ومعـذِرة البراعـةِ والقـوافي
جـلالُ الـرُّزْءِ عـن وَصْـفٍ يَـدِقُّ

وذكـري عـن خواطرهـا لقلـبي
إليـك تلفُّـتٌ أبـداً وخَفْـق

وبـي ممـا رمتـكِ بـهِ الليـالي
جراحـاتٌ لهـا في القلـب عُمْـق

دخلتـكِ والأصـيلُ لـه ائـتلاقٌ
ووجهُـك ضـاحك القـسماتِ طَلْـق

وتحتَ جِنانِك الأنهار تجري

ومِلءُ رُباك أوراقٌ ووُرْق

وحولي فتيةٌ غُرٌ صِباحٌ

لهم في الفضل غاياتٌ وسَبْق

على لهواتهم شعراءُ لُسْنٌ

وفي أعطافِهم خُطباءُ شُدْق

رُواةُ قصائدي، فأعجب لشعرٍ

بكلِّ محلَّةٍ يَرْويه خَلْق

غمزتُ إباءهم حتى تلظَّتْ

أنوف الأسْدِ واضطرَم المدَق

وضجَّ من الشكيمةِ كلُّ حُرٍّ

أبي من أميةَ فيه عِتق

لحاهـــــا اللّهُ أنبـــــاءً توالـــــتْ

علـــى سَـــمْعِ الـــوليِّ بمـــا يَـــشُقّ

يُفـــــصلها إلى الـــــدنيا بَريـــــدٌ

ويُجْمِلُهـــــا إلى الآفـــــاق بَـــــرْقُ

تكـــــادُ لروعـــــةِ الأحـــــداثِ فيهـــا

تخـــال مـــن الخُرافـــةِ وهـــي صِـــدْق

وقيـــل: معـــالمُ التـــاريخ دُكَّـــت

وقيـــل: أصـــابها تلـــفٌ وحَـــرق

أَلـــستِ دِمـــشقُ ـــ للإســـلام ظِئْـــراً

ومُرْضـــــعَةُ الأُبُـــــوةِ لا تُعَـــــقّ؟

صـــلاحُ الـــدين، تاجـــك لم يُجَمِّـــل

ولم يُوسَـــم بـــأَزين منـــه فَـــرْق

وكـــلُّ حـــضارةٍ في الأرض طالـــتْ

لهـــا مـــن سَـــرْحِكِ العُلْـــويِّ عِـــرق

سمـــاؤكَ مـــن حُلّـــي الماضـــي كتـــابٌ

وأرضُـــك مـــن حلـــي التـــاريخ رق

بنيـــتِ الدولـــةَ الكـــبرى ومُلْكـــاً

غبـــارُ حـــضاريته لا يُـــشَقّ

لـــه بالـــشام أعـــلامُ وعُـــرْسٌ

بـــشائره بأنـــدلسِ تـــدَق

ربـــاعُ الخلـــدِ ــ وَيْحَـــكِ ــ مـــا دَهاهـــا؟

أحـــق أنهـــا دَرَســـتْ أحَـــقُّ؟

وهــــل غُـــرَفُ الجِنـــانِ مُنـــضَّداتٌ؟
وهــــل لنعـــيمهن كـــأمس نَـــسْقُ

وأيـــن دُمَـــى المقاصِـــر مـــن حِجـــالٍ
مُهتكَـــــــةٍ، وأســـــــتارٍ تُــــــشَقُ

بَـــــرزن وفي نـــــواحي الأيـــــكِ نـــارٌ
وخَلـــــفَ الأيـــــكِ أفـــــراخٌ تُــــزقُّ

إذا رُمْـــــنَ الـــــسلامةَ مـــــن طريـــــق
أتـــتْ مـــن دونـــه للمـــوت طُـــرْق

بليـــــــلٍ للقـــــــذائفِ والمنايـــــــا
وراءَ سمائِـــــه خَطْـــــفٌ، وصَـــــعْقُ

إذا عـــصف الحديـــدُ، أحْمَـــرَّ أُفْـــقٌ
علـــى جنباتـــهِ، وأســـودَّ أُفْـــق

سَـــلي مـــــنْ راعَ غيــــدَك بعـــــدوَهْن

أبـــــين فــــؤادِه والـــــصخرِ فَـــــرق؟

وللمـــــستعمرين ـــــ وإن ألانـــــوا ـــــ

قلـــــوبٌ كالحجـــــارةِ، لا تَـــــرِقُ

رمــــاكِ بطيــــشهِ، ورمــــى فرنــــسا

أخـــو حـــربٍ، بـــه صَـــلَفُ، وحُمْـــق

إذا مـــــا جـــــاءَه طُـــــلابُ حـــــقٍّ

يقـــولُ: عـــصابةٌ خرجـــوا وشـــقّوا

دَمُ الثــــــوّارِ تعرفُـــــه فرنـــــسا

وتعلــــم أنــــه نــــورٌ وحَـــــقّ

جرى في أرضها، فيه حياةٌ

كمُنْهَلِّ السماء، وفيه رزق

بلادٌ ماتَ فتيتُها لتحيا

وزالوا دونَ قومهمُ ليبقوا

وحُرِّرت الشعوبُ على قناها

فكيف على قناها تسترق؟

بني سورية، أطرحوا الأماني

وألقوا عنكم الأحلام، ألقوا

فمن خدع السياسة أن تُغَروا

بألقاب الإمارة وهي رِقٌّ

وكم صَيَد بدا لك من ذليل

كما مالت من المصلوب عُنْق

فُتُــوق الملـــكِ تَحْــدُثُ ثــم تمــضي

ولا يمـــــضي لمخــــتلفين فتْــــق

نَـــــصَحْتُ ونحـــن مختلفـــون داراً

ولكـــن كلُّنـــا في الهـــمِّ شـــرق

ويجمعنـــــا إذا اختلفــــت بـــلادٌ

بيـــانٌ غـــيرُ مختلـــفٍ ونُطْـــق

وقفــــتم بـــين مـــوتٍ أو حيـــاةٍ

فـــإن رُمـــتم نعـــيمَ الـــدهر فاشْـــقوا

وللأوطـــــانِ في دَمِ كـــــلِّ حُـــــرٌّ

يــدٌ ســـلفتْ وديـــنٌ مـــستحِق

ومـــن يَـــسقي ويَـــشربُ بالمنايـــا

إذا الأحـــرارُ لم يُـــسقوا ويَـــسقوا؟

ولا يـــبني الممالـــك كالـــضحايا

ولا يُـــدني الحقـــوق ولا يُحـــقُّ

ففـــي القتلـــى لأجيـــالٍ حيـــاةٌ

وفي الأســـرى فِـــدىً لهمـــو وعِتْـــق

وللحريـــــةِ الحمـــــراء بـــــابٌ

بكـــلِّ يـــدٍ مُـــضَرَّجةٍ يُـــدَقُ

جـــزاكم ذو الجـــلالِ بـــني دِمَـــشقٍ

وعـــزُّ الـــشرقِ أوَّلـــهُ دِمَـــشْقُ

نـــصرتم يـــومَ محنتـــهِ أخـــاكم

وكـــلُّ أخٍ بنـــصر أخيـــه حـــق

وما كان الدُّروزُ قَبيلَ[1] شرٍّ
وإن أُخذوا بما لم يَستحِقُّوا

ولكن ذادَةٌ[2] وقُراةُ ضيفٍ
كينبوعِ الصَّفا خشُنوا ورَقُّوا

لهم جبلٌ أشمُّ له شعافٌ
موارد في السحاب الجُونِ بُلْق

لكلٍّ لبوءَةٍ، ولكلِّ شبلٍ
نِضالٌ دونَ غايتِه ورَشْقُ

كأن مِن السَّمَوْألِ[3] فيه شيئاً
فكلُّ جِهاتِه شرفٌ وخلْق

---

(١) القبيل: جمع قبيلة وهي العشيرة.

(٢) الذادة: جمع ذائد وهو الحامي.

(٣) السموأل: هو السموأل بن عادياء صاحب القصيدة التي مطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه   فكل رداء يرتديه جميل

دمشــق

قــم نــاجِ جِلّــقَ، وأنْــشُدْ رســمَ مــن بــانوا

مَــشَتْ علــى الرَّســم أحــداثٌ وأزمــان

هــذا الأديــمُ كتــابٌ لا كفــاءَ لــه

رثُّ الــصحائفِ، بــاقٍ منــهُ عنــوان

الــدينُ والــوحيُ والأخــلاقُ طائفــةٌ

منــه وســائرُه دنيــا وبهتــان

مــا فيــه إن قُلِّبَــتْ يومــاً جــواهرُهُ

إلاّ قــرائحُ مــن راد وأذهــان

بنــو أميــةَ للأنبــاءِ مــا فتحــوا

وللأحاديــثِ مــا ســادوا ومــا دانــوا

كــانوا ملوكــاً، ســريرُ الــشرق تَحــتَهُمُ

فهــل ســألتَ ســريرَ الغــرب: مــا كــانوا؟

عــالينَ كالــشمس في أطــراف دولتهــا

في كـــل ناحيـــةٍ مُلـــكٌ وســـلطان

يــاويحَ قلــبي! مهمــا انتــاب أرْسُــمَهُم

ســـرى بـــه الهــمُّ، أو عادتــهُ أشـــجان

بــالأمس قمــتُ علــى (الزهــراء) أنــدُبُهم

واليــوم دمعــي علــى (الفيحــاء) هَتَّــان

في الأرض مـــنهم سمـــاواتٌ، وألويـــةٌ

ونيِّـــــراتٌ، وأنــــواءٌ، وعقبـــــان

معـــادن العـــزِّ مـــال الرغّـــام بهـــم

لــو هــان في تُرْبــهِ الإِبرِيــزُ مــا هــانوا

لــولا دِمَــشْقُ لمــا كانــت (طُلَيطِلَــة)

ولا زهـــتْ بـــني العبـــاس بغـــدان

مــــررتُ بالمــــسجد المحـــزونُ، أســـأله

هـــل في المـــصلَّى أو المحــراب (مـــروان)

تغـــير المـــسجد المحـــزون واختلفـــت

علـــى المنـــابر أحـــرارٌ وعِبـــدان

آمنـــتُ بـــالله، واســـتثنيتُ جَنَتَـــه

دمـــشق رَوْحٌ وجنـــاتٌ، ورَيْحـــان

قـــالَ الرفـــاقُ وقـــد هَبـــتْ خمائلُهـــا:

الأرضُ دارٌ لهـــا (الفيحـــاء) بـــستان

جَـــرى وصـــفَّقَ يلقانـــا بهـــا بـــردى

كمـــا تلقَّـــاك دون الخُلْـــدِ رضـــوان

دخلتُهـــــا وحواشـــــيها زُمُـــــرُّدَةٌ

والـــشمس فـــوق لُجـــين المـــاءِ عِقبـــان

والحـــور في (دُمَّـــر)، أو حـــول (هامَتِهـــا)

حـــورٌ كواشِـــفُ عـــن ســـاق وولـــدان

و(ربــــوةُ) الـــــوادِ في جِلبـــــابِ راقــــصةٍ

الــــساقُ كاســــيةٌ والنحـــــرُ عُريــــان

والطــيرُ تَــصدح مــن خلــف العيــونِ بهــا

وللعيــــونِ كمــــا للطــــير ألحــــان

نــــصيحةٌ ملؤهـــا الإخــــلاصُ صــــادقةٌ

والنُّــــصحُ خالــــصُه ديــــنٌ وإيمــــان

والــشعر مــا لم يكــن ذكــرى وعاطفــةً

أو حكمــــــةً، فهـــــو تقطيـــــع وأوزان

ونحــن في الــشرق والفــصحى بنــو رَحــم

ونحــــــن في الجُـــــرح والآلام إخــــوان

زحلة

يا جارةَ الوادي طَرِبْتُ وعادني

ما يشبهُ الأحلامَ من ذكراك

مَثَّلْتُ في الذكرى هواكِ وفي الكرى

والذكريات صدى السنينَ الحاكي

ولقد مررتُ على الرياض بربوةٍ

غنّاءَ كنتُ حيالها ألقاك

ضحِكَتْ إليَّ وجُوهها وعيونُها

ووجدتُ في أنفاسها ريّاك

فـــذهبت في الأيـــام أذكـــر رفْرَفـــاً

بـــين الجـــداولِ والعيـــونِ حـــواك

أذكَـــرْتِ هَرولـــةَ الـــصبابةِ والهـــوى

لمـــا خَطَـــرْتِ يُقـــبِّلان خُطـــاك؟

لم أدر مـــا طيـــبُ العِنـــاقِ علـــى الهـــوى

حتـــى ترَّفـــق ســـاعدي فطـــواك

وتـــأوَّدَتْ أعطـــافُ بانِـــك في يـــدي

واحمـــرّ مـــن خَفَرَيْهمـــا خـــدّاك

ودَخلْـــتُ في لـــيلين: فَرْعِـــك والـــدُّجى

ولثمـــتُ كالـــصّبح المنـــوِّرِ فـــاكِ

ووجـــدتُ في كُنْـــهِ الجـــوانحِ نـــشوةً

مـــن طيـــب فيـــك، ومـــن سُـــلاف لمَـــاك

وتعطَّلَــــتْ لغـــة الكـــلامِ وخاطبـــتْ

عـــــينيَّ في لغـــة الهـــوى عينــــاك

ومحـــوتُ كـــلَّ لُبانـــةٍ مـــن خـــاطري

ونــــسيتُ كـــلَّ تعاتـــبٍ وتـــشاكي

لا أمـــسِ مـــن عمـــر الزمـــان ولا غـــدٌ

جُمِـــع الزمـــانُ فكـــان يـــومَ رِضـــاك

يا شراعاً وراء دجلة

"غنّاها بين يدي ملك العراق المغفور له فيصل الأول الموسيقار محمد عبد الوهاب بمناسبة زيارته لتلك البلاد في سنة ١٩٣١"

يـــا شـــراعاً وراءَ دِجلـــةَ يَجـــري ... في دمـــوعي تجنبتـــك العَـــوادي

سِـر علـى المـاءِ كالمسيحِ رُويـداً ... واجـر في الـيم كالـشعاع الهـادي

وأْتِ قاعـاً كرفـرفِ الخلـدِ طِيبـاً ... أو كَفِرْدَوْسِـــهِ بـــشاشةَ وادي

قِـفْ، تمهَّـلْ، وخُـذ أَمانـاً لقلـبي ... مـن عيـونِ المهَـا وراءَ الـسَّوادِ

والنُّواسِـيُّ والنَّـدامَى، أَمِـنهم ... سـامرٌ يمـلأُ الـدُّجَى أو نـادِ؟

خَطَـرتْ فوقـه المِهـارةُ تعـدو ... في غُبـارِ الآبـاءِ والأجـداد

أُمَّـةٌ تُنـشِئ الحيـاةَ، وتـبني ... كبِنـاءِ الأُبـوَّةِ الأَمجـاد

تحـتَ تـاجٍ مـن القرابـة والمُلْــ ... ــكِ علـى فَـرْقِ أَرْيحـيَّ جـواد

ملـك الـشطِّ، والفـراتيْنِ، والبطـ ... ــحاءِ، أَعظِـمْ بِفَيْـصَلٍ والـبلاد



الربيع ووادي النيل

إلى (هول كين) الكاتب الروائي الشهير

آذارُ أقبــلَ، قُــمْ بنــا يــا صــاحِ حـــيِّ الربيـــعَ حديقـــةَ الأرواحِ

واجمعْ نَدامى الظَّرفِ تحت لوائه وانـــشرْ بـــساحتِه بـــساطَ الـــرَّاح

صفوٌ أُتيحَ، فخذْ لنفسِكِ قِسطَها فالـصفوُ لـيس علـى المـدَى بمُتـاح

واجلس بضاحكة الرياضُ مُصَفِّقاً لتجـــاوُبِ الأَوتـــارِ والأَقـــداح

واستأْنِـسَنّ مـن الـسُّقاة برفقَـةٍ غُـــرٍّ، كأمثـــال النجـــوم، صِـــباح

رقَّـتْ كنُـدمان الملـوك خلالُهُـم وتجمَّلـــوا بمـــروءةٍ وسمـــاح

واجعل صَبوحَك في البكور سَليلةً للمنجِبـــيْنِ: الكـــرْمِ والتفـــاح

مهما فضضتَ دِنَانها فاستضحكت مُلِـئَ المكـانُ سَـنىً، وطيـبَ نُقـاح

تطغى، فإن ذكرتْ كريمَ أُصولها خلعت على النشوان حِلْيةَ صاحي

(فرعون) خبأها ليوم فتوحه وأعد منها قرية (لفتاح)

ما بين شادٍ في المجالس أَيْكُهُ ومُحجَّباتِ الأَيْكِ في الأَدواح

غَرِدٌ على أوتارِه، يُوحي إلى غَرِدٍ على أَغصانه، صَدّاح

بيضُ القلانِس في سواد جَلابِبٍ حُلِّينَ بالأَطواق والأَوضاح

رَتَّلْنَ في أَوراقهن ملاحناً كالراهباتِ صبيحةَ الإِفصاح

يخطرن بين أَرائكٍ ومنابرٍ في هيكل من سُندس فيَّاح

مَلِكُ النبات، فكلُّ أَرضٍ دارُه تلقاه بالأَعراس والأَفراح

منشورةٌ أَعلامُهُ، من أَحمرٍ قانٍ، وأَبيضَ في الرُّبَى لمَّاح

لبِستْ لمقْدَمه الخمائلُ وَشْيَها ومَرَحْنَ في كنَف له وجناح

يغشى المنازلَ من لواحظ نرجس آناً، وآناً من ثغور أَقاح

وروؤس "منثـــورٍ" خَفَــضْنَ لعـــزِّه تيجـــــــانهنَّ عـــــــواطرَ الأَرواح

الــوردُ في سُــرُرِ الغــصونِ مُفــتَّح متقابـــل يُثنـــى علـــى الفَتَّـــاح

ضاحِي المواكب في الرياض، مُمَيَّزٌ دون الزهـــور بــــشَوْكةٍ وســـلاح

مــرَّ النــسيمُ بــصفحتيه مُقْــبِلاً مــرَّ الــشِفَاه علــى خــدود مــلاح

هتــكَ الــردى مــن حــسنهِ وبهائــه بالليــل مــا نــسجتْ يــدُ الإِصــباح

ينبيــك مــصرعُه ــ وكــلُّ زائــلٌ ــ أَن الحيـــــاة كغُـــــدوة ورَواح

ويقـــائقُ النَّـــسْرِينِ في أَغـــصانها كالــدُرِّ رُكِّـب في صــدور رمـــاح

و"الياسَـــمينُ" ؛ لَطِيفُــه ونَقِيُّـــه كـــسريرة المتنــــزِّه المِـــسماح

مُتَـــاَلِّقٌ خَلَــل الغــصون، كأَنــه في بُلجْــة الأَفنـــانِ ضـــوءُ صـــباح

و"الجُلَّنَـــارُ" دمٌ علـــى أَوراقِـــه قـــاني الحـــروفِ، كخـــاتم الــسفاح

وكـأَن مخـزونَ "البنفسَجِ" ثاكـلٌ يَلْقـــى القــضاءَ بخــشية وصــلاح

وعلـــى "الخـــواطرِ" رِقَّـــةٌ وكآبـــةٌ كخـــواطر الـــشُّعراءِ في الأَتـــراح

والـسَّرْوُ في الحِبَـرِ الـسوابغ كاشـفٌ عـــن ســـاقِه كمليحـــة مِفْـــراح

و"النخلُ" ممـشوقُ العُذُوقِ، مُعصَّبٌ متـــــزينٌ بمنـــــاطق ووِشـــــاح

كبنـــاتِ فرعـــونٍ شـــهدنَ مواكبـــاً تحـــتَ (المـــراوح) في نهـــارٍ ضـــاح

وتـرى الفـضاءَ كحـائط مـن مَرْمَـرٍ نُـــضِدَتْ عليـــه بـــدائعُ الأَلـــواح

الغَـــيْمُ فيـــه كالنَّعـــام: بَدينـــةٌ بركـــتْ، وأُخـــرى حَلَّقَـــتْ بجَنـــاح

والـشمسُ أَبهـى مـن عـروسٍ بُرقعـتْ يـــوم الزِّفـــاف بعـــسجَد وضَّـــاح

والمـــاءُ بـــالوادي يُخـــالُ مَـــسارِباً مـــن زئبـــق، أو مُلقَيـــاتِ صِـــفاحِ

بعثـــتْ لـــه شمـــسُ النهـــار أَشـــعَّةً كانـــت حُلـــى (النَّيْلُـــوفَرِ) الـــسباح

يزهـــو علـــى ورقِ الغـــصون نثيرُهـــا زَهْـــوَ الجـــواهِرِ في بطـــون الـــرّاح

وجـــرت ســـواقٍ كـــالنّوَادب بـــالقُرى رُعْـــنَ الـــشجى بأَنَّـــةٍ ونُـــوَاح

الشاكياتُ وما عَرَفْنَ صبابةً   الباكياتُ بمَدْمَع سحَّاح

من كلِّ بادية الضاوعِ غليلةٍ   والماءُ في أَحشائها، مِلواح

تبكي إذا رَتَبَتْ، وتضحك إن هَفَتْ   كالعِيس بين تَنَشُّط ورَزاح

هي في السلاسل والغلول؛ وجارُها   أَعمى، ينوءُ بنِيرِه الفدّاح

إِني لأَذكرُ بالربيعِ وحسنهِ   عهدَ الشباب وطِرفِه المِمراح

هل كان إلاّ زهرةً كزهورِهِ   عجلَ الفناءُ لها بغير جُناح؟

(هول كين) مصرُ رواية لا تنتهي   منها يدُ الكُتَّاب والشُرّاح

فيها من البَرْدِيِّ، والمُزْمور، وال   توراةِ، والفرقان، والإصحاح

(ومِنَا)، (وقمبيزٌ)، إلى (إِسكندرٍ)   فالقيصَرين، فذِي الجلال (صلاح)

تلك الخلائقُ والدهورُ خزانةٌ   فابعثْ خيالَكَ يأْتِ بالمفتاح

أُفقُ البلاد ــ وأَنت بين رُبوعها ــ   بالنجم مزدانٌ وبالمصباح

أثر البال في البال

في وصف ليلة راقصة أقيمت في قصر عابدين

حَــــفَّ كأسَــــها الحبَـــبُ ... فهــــي فِــــضة ذَهَـــــبُ

أو دوائــــــــــــــرٌ دُرَرٌ ... مــــائجٌ بهــــا لبَــــبُ

أو فــــمُ الحبيــــب، جــــلا ... عَــــن جُمانِـــهِ الـــشَنَبُ

أو يـــــدٌ، وباطِنُهــــا ... عاطِـــــلٌ ومختــــضِبُ

أو شَــــقيقُ وجنتِــــه ... حــــينَ لــــي بــــه لعِــــبُ

راحــــةُ النفــــوس، وهــــل ... عنــــد راحــــةٍ تعَــــبُ

يــــا نــــديمُ، خِــــفَّ بهــــا ... لا كبــــا بــــك الطــــربُ

لا تقـــــلْ: عواقبُهــــــا   فالعواقـــــــــــبُ الأدبُ

تنجلــــي ولــــي خُلُـــق   ينجلـــــي وينــــــسكبُ

يرقُـــب الرفــــاقُ لــــه   كلمــــا سَـــرى شـــربوا

شـــاعر العزيــــز، ومــــا   بالقليـــــل ذا اللقــــــب

ليلــــــــةٌ لــــــسيدِنا   في الزمـــــان تُرتقـــــبُ

دونَهـــا الرشـــيد، ومـــا   أخلَــــدْت لــــه الكتـــبُ

يُهْــــرَعُ النزيـــل لهـــا   والرعيـــــة النُّخَـــــبُ

فالـــــسراي جـــــوهرةٌ   للعقـــــول تختَلِـــــبُ

أو كباقــــــة زهْـــــرا   للعيـــــون تأتـــــشِبُ

الجــــــلال قبتُــــــه   والــــسنا لــــه طُنُــــبُ

ثابـــــــتٌ، وذروتُـــــــهُ   في الفـــــضاء تـــــضطربُ

أشـــــرقْت نوافـــــذه   فهـــي منظـــر عجـــبُ

واستنارَ رفرَفهُ   والسجوف والحُجُبُ

تعجَب العيونُ له   كيف تسكنُ الشُّهبُ

أقبلتْ شموس ضُحى   ما لهن مُنتقَبُ

الظلامُ رايتُها   وهي جيشُهُ اللجِبُ

في هوادِجِ عجلا   بالجيادِ تَنْسحِبُ

قامَ دونها سبَبٌ   واستحثها سَببُ

فهي تارةً مهلٌ   وهي تارةً خَبَبُ

ترتمي بهنّ حِمى   لا يجوزه رَغَبُ

بابُه لداخِله   جنةٌ هي الأَرَبُ

قامتْ السراةُ بِه   والمَعيَّةُ النّجُبُ

وانبرى النساءُ لَهُ   عُجْمُهنَّ والعَربُ

العفافُ زينتُها   والجَمالُ والحَسَبُ

أنجـــــــمٌ مطالِعُهــــــا عابــــــدين والرحَــــــبُ

ســــيدي لهــــا فلـــكٌ وهـــــي منـــــهُ تَقْتَـــرِبُ

عنــــدَ ركـــنِ حُجْرتـــهِ بَـــــدْرُهُ لَنـــا كَثـــبُ

يزدهـــي الــــسريرُ بــــه والمطــــارفُ القُــــشُبُ

حَـــولَ عرشِـــه عجَـــمُ حـــولَ عرشِـــه عَـــرَبُ

رُتبـــةُ الجـــدودِ لَـــهُ تـــستوي بهـــا الرُّتَـــبُ

شَـــرُفَتْ بـــهِ وسَـــما تالـــدٌ ومُكْتَـــسَبُ

الليـــــوثُ مائِلـــــةٌ والظبـــــاءُ تَنْـــسَرِبُ

الحريــــرُ ملبَـــسُها واللّجـــينَ والـــذهَبُ

والقــــصورُ مــــسرحُها لا الرِّمـــالُ والعُـــشُبُ

يــــستفزُّها نَغَـــمٌ لا صــــدى ولا لَجَـــبُ

يُــــستعادُ مَرْقَـــصُهُ تـــــارة ويُقْتَـــضَبُ

فالقـــدود بـــانُ ربـــى   بَيْـــدَ أنهـــا تَثِـــبُ

يلعـــبُ العنـــاقُ بهـــا   وهـــو مـــشفقٌ حَـــدِبُ

فهـــي مـــرةً صـــعدٌ   وهـــي مـــرة صَـــبَبُ

وهـــي ههُنـــا وهُنـــا   تلتقـــي وتـــصْطحبُ

مثلمـــا التقـــتْ أســـلٌ   أو تعانقـــتْ قُـــضُبُ

الـــرؤوس مائلـــةٌ   في الـــصدورِ تَحتَجِـــبُ

والنحـــورُ قائمـــةٌ   قاعـــد بهـــا الوَصَـــبُ

والنهـــودُ هامـــدةٌ   والخـــدودُ تَلْتَهـــبُ

والخـــصورُ واهيـــةٌ   بالبنـــانِ تَنجـــذِبُ

ســـالت الأكـــفُّ بهـــا   فهـــي أغـــصُنٌ نُهـــبُ

الخـــوانُ دائـــرةٌ   المـــلا لهـــا قُطُـــبُ

للوفـــودِ مائـــدةٌ   منـــه أينمـــا انقلبـــوا

والطريـــــقُ متـــــصلٌ نحــــــوَهُ ومُنْــــــشَعِبُ

والطعـــــامُ حاضـــــرهُ والمزيـــــدُ مُنْتَهَـــــبُ

بـــــاردٌ ومِــــنْ عجَـــــبٍ يَـــــشتهي ويطّلِـــــبُ

ســـــائغٌ لـــــذي سَـــــغَبٍ ســـــائغٌ ولا سَـــــغَبُ

حاضـــــرُ لـــــدى طَلَـــــبٍ حاضـــــرُ ولا طَلَـــــبُ

والمُـــــدامُ أكؤسُـــــها والنّهـــــى لهـــــا ســـــلَبُ

شَـــــرُفتْ منافِحُهـــــا واعتلـــــى بهـــــا العَنَـــــبُ

حولَهـــــا الحـــــوائِمُ مـــــا ينقـــــضي لهـــــا قـــــربُ

يغتـــــبطنَ في حـــــرَمٍ لا تنالـــــهُ الرِّيَـــــبُ

مـــــا ســـــوى الحـــــديث بـــــه يبتغـــــي ويجتـــــذبُ

هكـــــذا الكـــــرامُ كـــــرا مُ "وإنْ هُمُـــــوا طَرِبـــــوا"

ليلـــــةٌ علـــــت وغلـــــت ليـــــتَ فجْرِهَـــــا كَـــــذِبُ

يكفلُ الأميرُ لنا ... أن تُعيدَها الحقبُ

عاش للندى ملِكٌ ... سَيِّدٌ لَنا وَأبُ

حاتم الملوكِ إذا ... ضاقَ بالندى النشبُ

السرورُ أنعُمُهُ ... والهناءُ ما يَهَبُ

والندى سَجِيّتهُ ... والحنانُ والحَدبُ

يا عزيزُ: دامَ لنا ... روض عزّكَ الأشِبُ

هذه عروسُ نهى ... في القبول ترتَغبُ

زفّها لكم وَجَلا ... شاعرُ الحِمى الأَرِبُ

احتفى الحضورُ بها ... واكتفى بها الغَيَبُ

لو مَدَحْتُكم زمني ... لم أقم بما يَجِبُ

مضناك جفاه مرقده

مُضْناكَ جَفَاهُ مَرْقَدُهُ … وبَكَاهُ وَرحَّمَ عُوَّدُهُ

حَيرانُ القلْبِ مُعذَّبُهُ … مَقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهَّدَهُ

أوْدَى حُرَقاً إلاَّ رَمَقاً … يُبقيهِ عَليكَ وتُنْفِدُهُ

يستهوِي الوُرْقَ تأوُّهُهُ … ويُذيبُ الصَّخرَ تنَهُّدُهُ

ويُناجِي النَّجمَ ويَتبَعُهُ … وَيُقيمُ اللَّيلَ ويُقعِدُهُ

ويُعَلِّمُ كَلَّ مُطَوَّقَةٍ … شَجَناً في الدَّوحِ تَرَدُّدُهُ

كمْ مَدَّ لطيْفكَ مِنْ شَرَكٍ … وتِأدَّبَ لا يَتَصيَّدُهُ

فعِساكَ بِغَمْضٍ مُسعِفهُ … ولعلَّ خَيالَكَ مُسْعِدُهُ

الحُــــسنُ حَلفْــــتُ بيُوسِـــفِهِ　　　والـــــسُّورةِ إنَّــــكَ مُفْــــرَدُهُ

قـــدْ وَدَّ جَمالَـــكَ أوْ قَبَـــساً　　　حَــــوْراءُ الخُلـــدِ وأمْـــرَدُهُ

وتمَنَّــــتْ كـــلُّ مُقَطّعَــــةٍ　　　يــدَها لــوْ تُبْعــثُ تَــشْهدُهُ

جحَــدتْ عيْنـاكَ زكــيَّ دَمــي　　　أكَــذلكَ خَــدُّكَ يجْحــدُهُ

قــدْ عــزَّ شُــهُودي إذْ رَمَتــا　　　فأَشــرتُ لخــدِّكَ أُشــهِدُهُ

وهَمَمْــتُ بجِيْــدِكَ أُشْــرِكهُ　　　فـــأَبى واسْــتكبرَ أَصْــيَدَهُ

وهَـــزَزْتُ قوَامَـــكَ أعْطِفُـــهُ　　　فَنبــــا وَتَمَنَّـــعَ أمْلَـــدُهُ

سَــــبَبٌ لرِضـــاكَ أُمهِّــدُهُ　　　مــا بــالُ الخَــصْرِ يُعَقّــدُهُ

بَــيني في الحــبِّ وبَينــكَ مَــا　　　لا يقــــدِرُ واشٍ يُفـــسِدُهُ

مِـا بــالُ العــاذِلِ يَفــتحُ لــي　　　بَــابَ الــسُّلوانِ وأوصِــدُهُ

ويَقُـــولُ تَكَـــادُ تُجَـــنُّ بِــهِ　　　فــأقُولُ وأُوشِــكُ أعبُــدُهُ

مــــوْلايَ ورُوحـــي في يـــدهِ　　　قــدْ ضــيَّعها سَــلِمتْ يــدُهُ

نـــاقُوسُ القَلـــبِ يـــدُقُّ لـــهُ　　وحَنايـــا الأَضْـــلعِ معْبـــدُهُ

حُـــــسَّادي فيــــهِ أعْـــذُرُهمْ　　وَأحَـــــقُّ بِعُـــذرى حُــــسَّدُهُ

قــــسَماً بثنايــــا لُؤْلُؤُهـــــا　　قَــــسَمَ اليـــاقُوتَ مُنَـــضِّدُهُ

ورُضــــاب يُوعَــــدُ كَـــوْثَرَهُ　　مقْتُـــولُ العـــشقِ وَمُـــشْهَدُهُ

وبخـــالٍ كَـــادَ يُحَـــجُّ لـــهُ　　لـــوْ كـــانَ يُقَبَّـــلُ أَسْـــوَدُهُ

وقَـــوامٍ يـــرْوى الغُـــصنُ لـــهُ　　نَـــسَباً والـــرُّمْحُ يُفَنِّـــدهُ

وبِخـــصْرٍ أوْهـــنَ مـــنْ جلـــدي　　وعَـــوَادِي الهَجْـــرِ تُبَـــدِّدُهُ

مـــا خُنــتُ هَـــوَاكَ ولا خَطَـــرتْ　　سَـــــلْوى بالقلْـــبِ تُبَـــرِّدُهُ

خدعوها

خَـــدَعُوها بقـــولهم: حـــسناءُ والغـــواني يَغُـــرُّهنَّ الثنـــاءُ

أتُراهـــا تناســـت اسمـــيَ لمـــا كثُـــرت في غرامِهـــا الأسمـــاءُ؟

إن رأتـــني تميـــل عـــني كـــأن لم تـــكُ بـــيني وبينهـــا أشـــياء!

نظـــرةٌ، فابتـــسامةٌ، فـــسلامٌ فكـــلامٌ، فموعـــدٌ، فلقـــاءُ

ففـــراقٌ يكـــون فيـــه دواءٌ أو فـــراقٌ يكـــون منـــه الـــداء

يومَ كُنا ـ ولا تسلْ: كيف كُنّا؟ ـ نتهـــادَى مـــن الهـــوى مـــا نـــشاءُ

وعلينـــا مـــن العفـــاف رقيـــبٌ تَعِبـــتْ في مِراســـه الأهـــواءُ

جـــاذبتني ثـــوبي العـــصي وقالـــت: أنـــتم النـــاسُ أيُّهـــا الـــشعراءُ

فـــاتقوا الله في قلـــوب العـــذارى فالعـــذارى قلـــوبُهنّ هـــواءُ

جبل التوباد

جبَلَ التوبادِ حيَّاكَ الحيا | وسقى اللهُ صِبانا ورَعَى
فيكَ ناغَيْنا الهوى في مَهدِهِ | ورضِعْناهُ فكُنتَ المُرضعا
وحَدَوْنا الشمسَ في مغرِبِها | وبكرْنا فسَبَقْنا المَطلَعا
وعلى سَفحِكَ عِشنا زَمَناً | ورعيْنا غَنَم الأهْلِ معا
هذه الربوةُ كانتْ ملعباً | لشابَينا وكانتْ مَرْتعا
كم بنينا من حصاها أربُعا | وانثنينا فمحونا الأربُعا
وخَطَطْنا في نقا الرملِ فَلَمْ | تحفظِ الريحُ ولا الرَّملُ وَعَى
لَمْ تزلْ ليلى بعيْني طفلةً | لم تَزِدْ عن أمس إلاّ أُصعُبا
ما لأحجاركَ صُمّاً كلّما | هاج بي الشوقُ أَبتْ أنْ تَسْمعا
كلْما جِئْتُكَ راجَعْتُ الصِّبا | فأبت أيامُهُ أنْ تَرْجعا
قدْ يهونَ العُمْرُ إلاّ ساعةً | وتهونُ الأرضُ إلاّ مَوْضِعا

مصاير الأيام

ألا حبَّــــذا صُـــحبةُ المكْتَـــبِ وأَحْبِـــبْ بأيامـــهِ أحْبِـــبِ

ويـــا حبــذا صـــبيةً يَمْرَحـــو ـ نَ، عِنـانُ الحيـاةِ علـيهمْ صَـبي

كـــأنهمو بـــسماتُ الحيـــا ـ ةِ وأنفـــاسُ رَيْحانهـــا الطَّيِّـــبِ

يُـراحُ ويُغـدى بهـمْ كالقطيـ ـ ـعِ على مـشرقِ الـشَّمسِ والمغْـرِبِ

إلى مرتـــعٍ أَلفـــوا غَـــيرَهُ وراعٍ غريـــبِ العـــصا أجْـــنبي

ومـــستقبلٍ مـــن قيـــودِ الحيـــا ـ ةِ شـديدٍ على الـنفس مُسْتـصعَبِ

فِـــراخٌ بأيـــكٍ فَمِـــنْ نـــاهضٍ يـــروضُ الجنـــاحَ ومـــن أَزغَـــبِ

مقاعِـدُهم مـن جنـاحِ الزمـا ـ نِ وما عَلمـوا خَطَـرَ المرْكَـبِ

عـــصافيرُ عنـــد تهَجِّـــي الـــدرو ـ سِ مهـــارٌ عرابيـــدُ في الملعـــبِ

خَلِيّــونَ مــن تبعــاتِ الحيــا ـــ ةِ علــى الأمِ يُلقونهـــا والأبِ

جنــونُ الحداثــةِ مــن حــولهمْ تــضيقُ بــهِ سَــعةُ المَــذهَبِ

غــدا فاســتبدَّ بعقــلِ الــصّبيِّ وأعــدى المــؤدِّبَ حتــى صَــبي!

لهــمْ جَــرسٌ مُطــربٌ في الــسّرا ـــ حِ، ولــيس إذا جــدَّ بــالمُطربِ

تــوارتْ بــه ســاعةٌ للزمــا ـــ نِ علــى النــاس دائــرةُ العَقْــربِ

تــشولُ بإبرتَهــا للــشبا ـــ بِ وتقــذِفُ بالــسُّمِ في الــشِّيّبِ

يــدقُّ بمطرَقَتيهــا القــضا ـــ ءُ وتجــري المقــاديرُ في اللوْلَــبِ

وتلــك الأواعــي بأيمــانهمْ حقائــبُ فيهــا الغــدُ المُختــبي

ففيهــا الــذي إنْ يقــمْ لا يُعَــدُّ مــن النــاس، أو يمــضِ لا يُحــسبِ

وفيهــا اللــواءُ وفيهــا المنــا ـــ رُ وفيهــا التبيــعُ وفيهــا الــنّبي

وفيهــا المــؤخَرُ خلــفَ الزّحــا ـــ مِ وفيهــا المقــدَّمُ في المَوْكِــبِ

جميــلٌ علــيهمْ قــشيبُ الثيــا ـــ بِ ومــا لمْ يُجَمّــلْ ولم يقــشَبِ

كــساهُم بنــانُ الــصِّبا حلّــةً أعـــزّ مــن المخمــلِ المــذهبِ

وأبهــى مــن الــوردِ تحــتَ النــدى إذا رفّ في فرعِـــه الأهْـــدَبِ

وأطهــرُ مــن ذيلــها لَــم يلــم مــن النــاسِ مــاشِ ولَــمْ يــسحبِ

قطيــع يزجيــه راعٍ مــن الدهـــ ـــ ـــرِ، لــيس بلـــينٍ ولا صـــلبِ

أهابـــتْ هراوتـــه بالرفـــا ـــ ق ونــادتْ علــى الحيّــد الهّــربِ

وصـــرف قطعانـــه فاســـتبد ولم يخـــشَ شــيئاً ولم يَرهَـــبِ

أرادَ لمــنْ شــاء ورعــى الجديــ ـــ ـــبَ وأنــزلَ مــن شــاءَ بالمُخْـضِبِ

وروى علـــى ريهـــا النـــاهلا ـــ تِ وردّ الظّمـــاءَ فلــم تَــشْربِ

وألقـــى رقابـــاً إلى الـــضاربيـ ـــ ـــن وضــنَّ بــأخرى فلــم تُــضرَبِ

ولــيس بمبــقٍ علــى الحاضِريــ ـــ ـــنَ ولــيس ببــاكٍ علــى الغُيَّــبِ

غاب بولونيا

هــــلا ذكـــرت زمـــانَ كُنّـــ ـــ ـــا والزمـــانُ كمـــا نريـــد؟
نطـــوي إليـــك دُجـــى الليـــا لـــي والـــدُّجى عنـــا يـــذودْ
فنقـــولُ عنـــدَك مـــا نقـــو ـــ لُ ولـــيس غـــيرُك مـــن يعيـــدُ
نُطفـــي هـــوى وصـــبابة وحـــديثُها وتـــرٌ وعـــودُ
نـــسري ونـــسرحُ في فـــضا ـــ ئـــك والريـــاحُ بـــه هجـــودُ
والطـــير أقعـــدَها الكـــرى والنـــاسُ نامـــتْ والوجـــودُ
فنبيـــتُ في الإينـــاسِ يغبِـــ ـــطنا بـــه الـــنجمُ الوحيـــدُ
في كـــلِّ ركـــنٍ وقْفَـــةٌ وبكـــلِّ زاويـــةٍ قُعُـــودُ
نَـــسْقي ونُـــسْقى والهـــوى مـــا بـــينَ أعيُننـــا وَليـــدُ
فمـــن القلـــوبِ تمـــائمٌ ومـــن الجُنـــوبُ لـــه مُهـــودُ

مملكة النحل

ألقيت هذه القصيدة في مجمع علميّ بوزارة الزراعة بمصر بُسطت فيه حياة النّحل والدعوة إلى تربيته، وكان ذلك في سنة ١٩٢٣، فوصف الشاعر مملكة النحل وما هي عليه من النظام وتدبير وبُعد نظر؛ ودعا إلى العمل والاستقلال الذّاتي بأسلوب رمزيّ جميل.

مملكـــــــــةٌ مُـــــــــدَبَّرهْ　　　بــــــــــامْرَأةٍ مُـــــــــؤَمَّرهْ

تحمِــــــلُ في العمَّــــالِ والـــــصُنَّاعِ عِـــبءَ الـــــسَّيْطرهْ...

مخلوقــــــــةٌ ضـــــــعيفةٌ　　　مِـــــنْ خُلـــــقٍ مَـــــصَوَّرهْ،

يـــا مـــا أقَـــلَّ مُلْكهـــا،　　　ومـــــا أجـــــلَّ خَطــــرهْ!

قِـــفْ ســـائِلِ النَّحْـــلَ بـــهِ　　　بـــــأيّ عقْــــلٍ دَبَّـــــرهْ،

يُجِبْــــكَ بـــــالأخلاقِ، وَهْـــــيَ كـــــالعُقولِ جَـــــوْهرهْ

تُغْـــني قُـــوى الأَخـــلاقِ مـــا　　　تُغْـــني القُـــوى المُفَكـــرهْ،

ويَرفـــــــــعُ اللهُ بِهــــــــا مَــنْ شــاءَ حتَّــى الحَــشرهْ...

مُلْـــــكٌ بَنَــــاهُ أهلُـــــهُ بهمَّـــــــــةٍ ومَجْــــــــدَرَهْ

لـــــو التَمـــــسْتَ فيــــهِ بطَّـــالَ اليّـــــدينِ لمْ تَـــرَهْ:

تُقْتَـــــلُ أوْ تُنفـــى الكُـــسا ــ لى فيـــهِ غَيْـــرَ مُنْـــذَرَهْ

تَحْكُــــمُ فيــــهِ قيْـــصَرَهْ في قَوْمِهـــــــا مُــــــوَقَّرهْ،

مِـــنَ الرّجـــالِ وقُيــــو ــ دِ حُكمِهــــــمْ مُحــــرَّرهْ،

لا تُـــورِثُ القَـــومَ ولـــو كـــانوا البَـــنينَ البَـــرَرَهْ،

أَلمُلـــــكُ للإنــــاثِ في الدُّســـــتُور لا للـــــذّكرَهْ...

فهَـلْ تُـرى تَخْـشى الطَّمـا ــ عَ في الرِّجـالِ والـشَّرهْ؟...

أنثـــى، ولكـــنْ في جَنـــا ــ حَيْهـــا لَبَـــاةٌ مُخـــدَّرهْ

ذائِـــدَةٌ عَـــنْ حَوْضِـــها، طـــارِدةٌ مَـــنْ كَـــدَّرَهْ،

تقلَّـــــدتْ إبْرَتهــــا، وادَّرَعـــتْ بــــالْحَبَرهْ...

تَلقـــى المُغـــيرَ بـــالجُنُو ـــ دِ الخُـــشُنِ المُنمَّـــرهْ...

مَـــنْ يَـــبْنِ مُلكـــاً أو يَـــذُدْ، فَبالْقَنــــا المُجـــــرَّرَهْ،

إنَّ الأُمـــــورَ هِمَّـــــــةٌ، لـــيسَ الأُمـــورُ ثَرْثَـــرهْ!...

مالِكـــــــةٌ عاملـــــــةٌ مُـــــصلِحةٌ مُعمِّـــــرهْ،

صـــــاعِدةٌ في معْمـــــلٍ، مِـــنْ مَعمـــلٍ مُنْحـــدرَهْ،

وارِدَةٌ دَسْـــــــــــكَرَةً، صـــادِرَةٌ عـــنْ دَسْـــكرهْ،

بـــــاكرةٌ تَـــسْتنهِضُ العَـــــصائبَ المُبكِّـــــرهْ

الـــــسامعينَ الطَّـــائعينَ المُحـــــسنينَ المَهـــرهْ،

مِـــنْ كُـــلِّ مَـــنْ خَـــطَّ البِنـــا ـــ ءَ، أوْ أقَــــامَ أَسْــــطُرَهْ،

أوْ شَـــــدَّ أصْـــلَ عقْـــدِهِ أوْ ســـــدَّهُ أوْ قـــــوَّرَهْ،

أوْ طـــافَ بالمـــاءِ عَلـــى جُدرانــــهِ المُجَـــــدَّرهْ.

وتَـــذهبُ النَّحـــلُ خِفـــا ـــ فـــاً، وتَجـــيءُ مُـــوقرهْ،

جَوالِـــبَ الـــشَّمعِ مـــنَ الخَمائـــلِ المُنـــوَّرهْ،

حَوالـــبَ المـــاذِيِّ مِـــنْ زَهـــرِ الرِّيـــاضِ الـــشَّيِّرهْ.

مَـــــشْدُودَةٌ جُيوبُهـــــا عَلـــى الجَنـــى مُـــزرَّرة،

وكُـــــلُّ خُرطـــــومٍ أدَا ـ ةُ العَـــــسَلِ المُقطِّـــــرَهْ،

وكُـــــلُّ أنـــــفٍ قـــانئٍ فيـــهِ مِـــنَ الـــشُّهدِ بُـــرَهْ،

حتَّـــى إذا جـــاءَتْ بـــهِ جَاسَـــتْ خِـــلالَ الأَدْوِرهْ،

وغيَّبَتْـــــهُ كالـــــسُّلا ـ فِ فِي الـــدِّنانِ المُحْـــضَرهْ.

فهَـــلْ رأيـــتَ النَّحـــلَ عَـــنْ أمانَــــةٍ مُقَـــــصِّرهْ؟

مـــا اقْترضَـــتْ مـــنْ بَقْلـــةٍ أوِ اســـــتعارَتْ زّهـــــرَهْ

أدَتْ إلى النَـــــاسِ بـــــهِ سُـــــكَّرةً بِـــــسُكَّرهْ.

عمر المختار[1]

رَكَـــــزُوا رُفاتَـــــكَ في الرِّمـــــال لِـــــواءَ

يَـــــستنهضُ الـــــوادي صـــــباحَ مَـــــساءَ[2]

يـــــا وَيْحَهـــــم! نـــــصبوا مَنـــــاراً مـــــن دمٍ

تُـــــوحِي إلى جيـــــل الغـــــدِ البَغْـــــضاءَ

مـــــا ضـــــرَّ لـــــو جَعلـــــوا العَلاقـــــةَ في غـــــدٍ

بـــــين الـــــشعوب مَـــــوَدَّةً وإِخـــــاءَ؟

---

(١) شهيد المسلمين والعرب بطل طرابلس الخالد عمر المختار، هو من الأسرة السنوسية أصحاب الطريقة السنوسية ذات النفوذ الروحاني العظيم في كثير من أقطار الإسلام، ظل يقاتل الطليان في سبيل الذود عن وطنه وقومه، حتى قبضوا عليه وأعدموه شنقاً سنة ١٩٣١، وأشيع وقتئذ أنهم سلكوا في إعدامه سبلاً بشعة متوحشة، ولم يرحموا سنه التي نيفت على التسعين.

(٢) ركز اللواء: غرزه في الأرض. وهذا استعمال لغوي مشتق من الركيزة، وهي قطع الفضة والذهب والمعادن، أن العرب في الجاهلية يحفرون لها في الأرض، ويسمونها الدفائن، فقوله: "ركزوا رفاتك" استعمال أريد به الإشارة إلى أن هذا الرفات من النفائس والذخائر، التي يضن بها ويحرص عليها.

جُــرْحٌ يَــصيحُ علـــى المـــدَى، وضَـــحِيَّةٌ

تـــــتلمَّسُ الحريَّـــــــةَ الحمـــــــراءَ

يـــا أَيُّهـــا الـــسيفُ المجـــرَّدُ بـــالفَلا

يكـــسو الـــسيوفَ علـــى مـــر الزمـــان مَـــضاء

تلـــك الـــصحارى غِمْـــدُ كـــلِّ مُهَنَّـــدٍ

أَبْلَـــــى فأحـــــسنَ فِي العــــدوِّ بَــــلاءَ

وقبـــورُ مَـــوْتَى مـــن شـــبابِ أُمَيَّـــةٍ

وكهـــــولِهم لم يبْرَحُـــوا أَحيـــاءَ

لـــو لاذَ بـــالجوزاءِ مـــنهم معقِـــل

دخلـــوا علـــى أَبراجِهـــا الجـــوزاءَ

فتحـــوا الـــشَّمالَ: سُـــهولَهُ وجبالَـــهُ

وتوغَّلـــوا، فاســـتعمروا الخـــضراءَ

وبَنَـــوْا حـــضارتَهم، فطَـــاوَلَ ركنُهـــا

(دَارَ الـــسلامِ)، و(جِلَّـــقَ) الـــشَّمّاءَ

خُيِّـــرْتَ فـــاخْتَرْتَ المبيـــتَ علـــى الطَّـــوَى

لم تَـــبْنِ جاهـــاً، أو تَلُـــمَّ ثَـــراءَ

إنَّ البطولـــةَ أن تمـــوتَ مـــن الظَّمـــأ

لـــيس البطولـــةُ أن تَعُـــبَّ المـــاءَ

إفريقيـــا مَهْـــدُ الأُســـودِ ولَحْـــدُها

ضـــجَّتْ عليـــكَ أَراجـــلاً ونـــساءَ

والمـــسلمون علـــى اخـــتلافِ ديـــارِهم

لا يملِكـــون مـــعَ المُـــصَابِ عَـــزاءَ

والجاهليـــةُ مـــن وَراءِ قُبـــورِهم

يبكـــون زَيْـــدَ الخيـــل والفَلْحـــاءَ

* * * * * *

في ذِمَّةِ اللهِ الكريمِ وحفظِهِ

جَسَدٌ (ببرْقةَ) وُسِّدَ الصحراءَ

لم تُبْقِ منه رَحَى الوقائِع أَعظُماً

تَبْلَى، ولم تُبْقِ الرِّماحُ دِماءَ

كَرُفاتِ نَسْرٍ أو بَقِيَّةِ ضَيْغَمٍ

باتا وراءَ السَّافياتِ هَباءَ

بطلُ البَداوةِ لم يكن يَغْزو على

"تَنْكٍ"، ولم يَكُ يركبُ الأَجواءَ

لكنْ أَخو خَيْلٍ حَمَى صَهَوَاتِها

وأَدارَ من أَعرافِها الهيجاءَ

* * * * * *

لَبَّـــى قـــضاءَ الأَرضِ أمـــسِ بمُهْجَــــةٍ

لم تخْـــــشَ إلاَّ للـــــــسماء قَـــــضاءَ

وافـــــاهُ مَرْفـــــوعَ الجـــــبينِ كأَنـــــه

سُـــــقْراطُ جَـــــــرَّ إلى القُــــــضاةِ رِداءَ

شَـــــيْخٌ تَمالَـــــكَ سِـــــنَّهُ لم ينفجـــــرْ

كالطفـــل مـــن خـــوفِ العِقـــابِ بُكـــاءَ

وأَخـــــو أُمــــــورٍ عـــــاشَ في سَـــــرَّائها

فتغيَّـــــــرَتْ، فتوقَّـــــــع الـــــــضَّراءَ

* * * * * *

الأُسْـــــدُ تـــــزأَرُ في الحديــــدِ ولـــــن تـــــرى

في الـــــسِّجنِ ضِــــرْغاماً بكـــــى اسْــــتِخْذاءَ

وأَتـــــى الأَســـــيرُ يَجُــــرُّ ثِقْـــــلَ حَديـــــدِهِ

أَسَـــــدٌ يُجَـــــرِّرُ حَيَّـــــةً رَقْطـــــاءَ

عـّـــضَّتْ بــــساقيه القُيـــودُ فلـــم يَنُـــؤْ

ومَـــــشَتْ بهَيْكلـــــه الـــــسّنون فنـــــاءَ

تـــسعونَ لـــو ركبَـــتْ مناكـــبَ شـــاهقٍ

لترجلــــــــتْ هـــــــضباتُه إعيـــــــاءَ

خَفِيَـــتْ عـــن القاضـــي، وفـــات نَـــصِيبُها

مـــــن رِفْـــق جُنْـــدٍ قـــادةً نُـــبَلاءَ

والـــسِّنُّ تَعْـــصِفُ كُـــلَّ قَلْـــبِ مهـــذبٍ

عَــــرَفَ الجُــــدودَ، وأَدرَكَ الآبـــــاءَ

* * * * * *

دفعـــوا إلى الجـــلاَّدِ أغلَـــبَ ماجـــداً

يأْسُـــو الجِـــراحَ، ويُطلِـــقُ الأُسَـــراءَ

ويُـــشاطرُ الأَقـــرانَ ذُخْـــرَ سِـــلاحِهِ

ويَـــصُفُّ حَـــوْلَ خِوانِـــه الأَعـــداءَ

وتخيَّـــروا الحبـــلَ المَهـــينَ مَنيّـــةً

للَّيْـــثَ يلفِـــظ حَوْلَـــهُ الحَوْبـــاءَ

حَرمــــوا المـمــــاتَ علـــى الـــصَّوارِمِ والقَنـــا

مَـــــنْ كـــان يُعْطِـــى الطَّعْنَـــةَ الـــنَّجْلاءَ

إنــــي رأيـــتُ يَـــدَ الحـــضارةِ أُولِعَـــتْ

بـــالحقِّ هـّــدْماً تـــارةً وبِنـــاءَ

شـــرَعَتْ حُقـــوقَ النـــاسِ في أوطـــانِهم

إلاَّ أُبـــاةَ الـــضَّيْمِ والـــضُّعَفاءَ

* * * * * *

يـــا أَيُّهـــا الـــشعبُ القريـــبُ، أَســـامعٌ

فأَصـــوغَ في عُمَـــرَ الـــشهيد رِثـــاءَ؟

أم أَلْجَمَـــتَ فـــاكَ الخطـــوبُ وحَرَّمـــت

أُذنَيـــكَ حـــينَ تُخاطـــبُ الإصْـــغاءَ؟

ذهـــب الـــزعيمُ وأنـــتَ بـــاقٍ خالـــدٌ

فانقُـــد رِجالَـــك، واخْتَـــرِ الزُّعَمـــاءَ

وأَرِحْ شـــيوخَكَ مـــن تكـــاليفِ الـــوَغَى

واحْمِـــلْ علـــى فِتْيانِـــكَ الأَعْبـــاءَ



حافظ ابراهيم[1]

قد كنتُ أُوثرُ أَن تقولَ رِثائي
يا مُنْصِفَ الموْتى من الأَحياءِ

لكنْ سبقَتَ، وكلُّ طولِ سلامةٍ
قدرٌ، وكلّ مَنِيَّةٍ بقضاءِ

الحقُّ نادَى فاسْتجبْتَ، ولم تَزلْ
بالحقِّ تحفِلُ عندَ كلِّ نِداء

وأَتيْتَ صحراءَ الإمامِ تذوب من
طُولِ الحنينِ لساكن الصحراءِ[2]

---

(١) هو المرحوم محمد حافظ ابراهيم، شاعر سباق معدود في الطليعة، وكان يلقب بشاعر لنيل، توفي سنة ١٩٣٢، فرثاه أمير الشعراء شوقي بهذه القصيدة، التي ينبئ مطلعها عن مبلغ تقديره لصاحبه ووفائه له.

(٢) صحراء الإمام: المقبرة التي دفن بها، وهذه الصحراء تنسب للإمام الشافعي لوقوع ضريحه ـ رضي الله عنه ـ في نطاقها.

فلقيـــت في الــدار الإمـــامَ محمـــداً

في زُمْـــرَةِ الأَبـــرارِ والحنفـــاءِ[1]

أَثَـــرُ النعـــيم علـــى كـــريمِ جبينـــه

ومراشـــدُ التفـــسيرِ والإِفتـــاءَ

فـــشكوتما الـــشَّوْقَ القـــديمَ، وذُقْتُمـــا

طِيـــبَ التـــداني بعـــدَ طـــولِ تنـــائي

إنْ كانـــت الأُولى منـــازلَ فُرْقـــةٍ

فالـــسمْحَةُ الأُخـــرى ديـــارُ لقـــاءِ[2]

ووددْتُ لـــو أَنـــي فـــداكَ مـــن الـــرَّدَى

والكـــاذبون المُرْجِفـــونَ فِـــدائي

---

(١) الإمام: هو المرحوم الشيخ محمد عبده العالم الديني الكبير، وقد اشتهر المرحوم حافظ في حياته باكتساب عطفه ورضاه

(٢) الأولى: الحياة الدنيا

النــــاطقونَ عـــن الـــضَّغينةِ والهـــوى

المُـــوغِرُو المَـــوْتَى علـــى الأحيــــاءِ

مـــن كـــلِّ هَـــدَّامٍ ويَـــبني مجـــدَه

بكـــــرائم الأنقــــاضِ والأشــــلاءِ

مـــا حَطَّمـــوكَ، وإنمـــا بـــكَ حُطِّمـــوا

مـــن ذا يُحطِّـــم رَفْـــرَف الجـــوزاءِ؟[1]

أنظُـــره، فأَنـــت كـــأَمْسِ شـــأْنِكَ بـــاذخٌ

في الـــشرقِ، واسْـــمُكَ أرفـــعُ الأسمـــاءِ

بـــالأَمسِ قـــد حَلَّيْـــتني بقـــصيدةٍ

غـــراءَ تحفَـــظُ كاليـــدِ البيـــضاءِ[2]

---

(١) الرفرف: ما يجعل عليه طرائف البيت. والجوزاء: نجم معروف، فالتعبير برفرف الجوزاء: كناية عن أسمى مواضع الشرف والسمو.

(٢) يريد القصيدة التي أنشأها المرحوم حافظ وأنشدها في المهرجان العظيم الذي أقيم في القاهرة، وقد حضرت إليه وفود الأقطار العربية، وظل سبعة أيام تكريماً لمبايعة أمير الشعراء شوقي بإمارة الشعر في الشرق العربي عامة، وهي التي يقول فيه:

أمـــير القـــوافي، قـــد أتيـــت مبايعـــا وهـــذي وفـــود الـــشرق قـــد بايعـــت معـــي

غِـيظ الحَـسُودُ لهـا وقمـتُ بـشكرها

وكمـا علمـتَ مَـوَدَّتي ووفـائي

في مَحفـلٍ بَـشَّرَتْ آمـالي بـه

لمـا رَفعـتَ إلى الـسماء لِـوائِي

يـا مـانِحَ الـسَودانِ شـرْخ شـبابِه

ووَلِيَّـهُ في الـسلمِ والهيْجـاءِ

لمـا نزلْـت علـى خمائِلـه ثـوَى

نبْـعُ البيـانِ وراءَ نَبْـع المـاءِ

قلَّدْتَـهُ الـسيفَ الحُـسامَ، وزدْتَـهُ

قلمـاً كـصدرِ الـصَّعْدةِ الـسمراءِ

قلـم جـرى الحِقـبَ الطِّـوالَ فمـا جـرى

يومـاً بفاحـشةٍ ولا بهجـاءِ

يكـسو بِمدْحَتِـه الكِـرامِ جلالـةً

ويُـشَيِّعُ المـوْتى بحـسنِ ثنـاءِ

* * * * * *

إسْـــــكَنْدَرِيّةُ يـــــا عـــــروسَ المـــــاء

وخميلـــــةَ الحكمـــــاءِ والـــــشعراءِ

نـــــشأتْ بـــــشاطِئِكِ الفنـــــونُ جميلـــــةً

وتَرعرعَـــــتْ بـــــسمائِك الزهـــــراءِ

جاءَتْـــــكَ كـــــالطيرِ الكـــــريمِ غرائبـــــاً

فجمعتِهـــــا كـــــالرَّبْوَةِ الغنَّـــــاءِ

قـــــد جمّلـــــوكَ، فـــــصِرْتِ زِنْبَقَـــــةَ الثـــــرَى

للوافـــــدين ودُرَّةَ الـــــدَّأْماءِ

غَرسُـــــوا رُبـــــاكِ علـــــى خمائـــــلِ بابـــــلٍ

وبَنَـــــوْا قـــــصورَك في سَـــــنا الحمـــــراءِ

واســـــتحدثوا طُرُقـــــاً مُنَّـــــورة الهـــــدى

كـــــسبيلِ عيـــــسى في فجـــــاجِ المـــــاءِ

فخُـــــذي كـــــأَمِس مـــــن الثقافـــــة زينـــــةً

وتجمَّلـــــي بـــــشبابكِ النُجَبـــــاء

وتقلِّـــــدي لغـــــةَ الكتـــــابِ؛ فإنَّهـــــا

حَجَـــــرُ البنـــــاءِ، وعُـــــدَّةُ الإنـــــشاءِ

بَنَـــــتِ الحـــــضارةَ مـــــرَّتين، ومهَّـــــدتْ

للمُلـــــكِ في بغـــــدادَ والفَيْحـــــاءِ

وسَـــــمَتْ بقرطبـــــةٍ ومـــــصرَ، فحلَّتـــــا

بـــــينَ الممالـــــكِ ذِرْوَةَ العَليـــــاءِ

مـــاذا حـــشدتِ مِـــن الـــدموع "لحـــافظٍ"

وذخـــرْتِ مـــن حـــزنٍ لـــه وبكـــاءِ؟

ووجـــدْتِ مـــن وقـــعِ الـــبلاءِ بفقـــدهِ

إن الـــــبلاءِ مَـــــصارِعُ العظمـــــاءِ

اللّهُ يـــــشهدُ قـــــد وَفيْـــــتِ سَـــــخيَّةً

بالـــــدَّمع غـــــيرَ بَخيلـــــةِ الخطبـــــاءِ

وأَخـــذتِ قِـــسطاً مـــن مَناحـــةِ ماجـــدٍ

جَـــــمَّ المـــــآثرِ، طيِّـــــبِ الأنبـــــاءِ

هَتــــف الـــــرُواةُ الحاضــــرون بــــــشعره

وحــــــدا بــــــه البــــــادون في البَيْــــــداءِ

لبنـــــانُ يَبكيــــه، وتبكـــى الــــضادُ مـــــن

حَلـــــــبٍ إلى الفيْحـــــــاءِ إلى صَـــــــنعاءِ

عـــــربُ الوفـــــاءِ وَفــــوْا بذمــــةِ شــــاعرٍ

بــــاني الـــــصفوفِ، مُؤلـــــفِ الأجـــــزاءِ

يــا حــافظَ الفــصحى، وحــارسَ مَجْــدِها

وإمـــــامَ مـــــن نجَلـــــتْ مـــــن البُلغـــــاءِ

مــــا زِلْـــتَ تهتـــفُ بالقـــديم وفـــضله

حتـــــى حَمَيْــــت أمانـــــةَ القُـــــدماءِ

جـــــددت أُســــلوبَ (الوليـــدِ) ولفظـــــهِ

وأَتيْـــــت للــــدّنيا بـــــسحر (الطـــائي)

وجريْـــت في طلـــبِ الجديـــدِ إلى المـــدى

حتـــى اقترنْـــت بـــصاحب البُؤسـاءِ[1]

مــــاذا وراءَ المـــوت مـــن سَـــلْوَى، ومـــن

دَعَـــة، ومـــن كـــرَمٍ، ومـــن إغـــضاءِ؟

اشـــرحْ حقـــائقَ مـــا رأَيْـــت، ولم تـــزل

أَهـــلاً لـــشرْح حقـــائِقِ الأَشـــياءِ

رُتـــبُ الـــشجاعةِ في الرِّجـــالِ جلائـــلٌ

وأَجَلُّهُـــــنَّ شـــــجاعةُ الآراءِ

كـــم ضِـــقتَ ذرعـــاً بالحيـــاة وكيـــدِها

وهتفـــت بالـــشكوى مـــن الـــضَّراءِ

فهلُـــمَّ فـــارِقْ يـــأْسَ نفـــسِك ســـاعةً

واطلُـــعْ علـــى الـــوادي شُـــعاعَ رجـــاءِ

---

(١) البؤساء: كتاب لفكتور هوجو، عربه الفقيد.

وأَشـــرْ إلى الـــدنيا بوجـــهٍ ضـــاحكٍ

خُلِقـــتْ أَسِـــرَّتُهُ مـــن الـــسراءِ

يـــا طالمـــا مَـــلأَ النَّـــدِيَّ بـــشاشةً

وهـــدى إليـــك حـــوائجَ الفقـــراءِ

اليـــومَ هادنْـــت الحـــوادِثَ؛ فـــاطَّرِحْ

عِـــبءَ الـــسنين، وأَلْـــق عِـــبءَ الـــداءِ

خلَّفْـــت في الـــدنيا بيانـــاً خالـــداً

وتركْـــت أَجيـــالاً مـــن الأَبنـــاءِ

وغـــداً ســـيذكرك الزمـــانُ، ولم يَـــزلْ

للـــدِّهرِ إنِـــصافٌ وحـــسنُ جـــزاءِ

عبد الحليم العلايلي [1]

لقـــد لَبَّــــى زعـــيمُكُم النِّـــداءَ
عَـــزاءً أهـــلَ دِمْيـــاطٍ عَـــزاءَ

وإِن كـــان المُعَـــزِّي والمُعَـــزَّى
وكـــلُّ النـــاسِ في البَلْـــوَى سَـــواءَ

فُجِعْنـــا كلُّنـــا بعلائِلِّـــي
كـــركنِ الـــنجمِ أَو أَســـنى عَـــلاءَ

أَرَقُّ شـــبابِ دِمْيـــاطٍ عليهـــا
وأَنـــشطُهم لحاجتهـــا قَـــضاءَ

---

(١) عبد الحكيم العلايلي: كان من أعيان دمياط، توفي سنة ١٩٣٢، بعد أن ترك له في القضية المصرية مواقف مذكورة. اشتهر منذ نشأ بعلو الهمة ونفوذ الكلمة فانتخب للمجالس النيابية بالنيابة عن دائرة دمياط عدة مرات، وانتخب سكرتير حزب الأحرار الدستوريين فكان في رجالات ذلك الحزب ممن يشار إليهم، وكان من أمير الشعراء بمنزلة الصهر والصديق.

وخـــــيرُ بيوتِهـــــا كرمـــــاً وتَقْـــوَى

وأَصـــــلاً في الـــــسِّيادة وانتهـــــاءَ

فتّـــــى كــــالرمحِ عاليـــــةً وعُـــودا

وكالصَّمْـــــصام إفْرِنْـــــداً ومـــــاءَ[1]

وأَعطـــــى المـــالَ والهِمَـــمَ العَـــوَالي

ولم يُعْـــــطِ الكرامـــــةَ والإبـــــاءَ

شـــــبابٌ ضـــارَع الرَّيْحـــانَ طِيبـــاً

ونازَعـــــهُ البـــــشاشةَ والبَهـــــاءَ

وجُنْـــــدِيٌّ القـــضيةِ منـــذُ قامَـــتْ

تعلَّـــمَ تحـــتَ رايَتِهـــا اللِّقـــاءَ

---

(١) عالية الرمح: نصفه الأعلى الذي يلي السنان. والصمصام: السيف. وافرنده وماؤه: كلاهما تمييز لجوهره.

ورُوِّعَ شـــــيخُها العـــــالي بيــــومٍ

فكـــــان بمَنْكِبيــــــهِ لـــــه وقــــاءَ[1]

ســـــعَى لـــــضميرِه، ولوَجْـــــهِ مـــــصرٍ

ولم يَتَـــــوَلَّ ينتظـــــر الجـــــزاءَ

* * * * * *

ونَعـــــشٍ كالغَمـــــامِ يـــــرف ظِـــــلاً

إذا ذهـــــب الزِّحـــــامُ بـــــه وجـــــاءَ

ولم تقـــــع العيـــــونُ عليـــــه إلا

أثـــــار الحـــــزنَ أو بعـــــثَ البكـــــاءَ

عَجبنـــــا كيـــــف لم يَحْـــــضَرْ عُـــــوداً

وقـــــد حمـــــل المـــــرُوءةَ والرُفـــــاءَ

مَـــــشَتْ دِميـــــاطُ فالتفـــــت عليـــــه

تنازعُـــــهُ الـــــذخيرة والرجـــــاء

* * * * * *

(١) يقصد "بشيخها العالي": المغفور له سعد باشا زغلول.

بـــني دميـــاطَ، مـــا شَـــيءٌ ببـــاقٍ

سـوى الفـــردِ الـــذي احتكـــر البقـــاءَ

تعـــــالى اللهُ، لا يبقَـــــى سِـــــواه

إذا وردَتْ بـريَّـتُـــــــــــــه الفنــــــــــاءَ

وأنـــــتم أَهـــــلُ إيمـــــانٍ وتقـــــوى

فهـــل تلْقَـــونَ بـالعَتْـــبِ القـــضاءَ؟

مـــــلأتم مـــــن بيـــــوتِ الله أَرضـــــاً

ومـــن داعـــي البُكـــورِ لهـــا سمـــاءَ

ولا تـــــــستقبلون الفجـــــــر إلا

علـــى قـــدم الـــصلاة إذا أضـــاءَ

وترتقبـــــون مَطْلَعَـــــهُ صِـــــغاراً

وتَـــــسْتَبقُونَ غُرَّتَـــــهُ نِـــــساءَ

وكـــم مـــن مَوْقِـــفٍ مـــاضٍ وقفـــتم

فكنـــتم فيـــه لِلـــوطن الفِـــداءَ

دفعـــــتم غــــارةً شـــعواءَ عنــــه

وذُدْتُـــمْ عـــن حواضِـــره الـــبَلاءَ

* * * * * *

أَخـــي (عبـــدَ الحلـــيم) ولـــسْتُ أَدري

أَأَدعـــو الـــصِّهْرَ أَم أَدعـــو الإِخـــاءَ؟

وكـــم صَـــحَّ الـــودادُ فكـــان صِـــهْراً

وكـــان كـــأَقرَبِ القُرْبَـــى صَـــفاءَ

عجيـــبٌ تركُـــكَ الـــدنيا ســـقيماً

وكنـــتَ النَّخْـــلَ تملوهـــا شِـــفاءَ

وكنَّـــا حـــينَ يُعْـــضِل كـــلُّ داءٍ

نجـــيءُ إليـــكَ نجعلـــك الـــدَّواءَ

مـــضت بـــك آلـــةٌ حـــدباءُ كانـــت

علـــى الـــزمن المَطِيَّـــةَ والوِطـــاءَ

وســـارَتْ خلْفـــكَ الأحـــزابُ صـــفًّا

وســـرْتَ، فكُنْـــت في الـــصفِّ اللِّـــواءَ

تولِّـــفُ بيـــنهم مَيْتـــاً، وتـــبني

كعهـــدِكَ في الحيـــاة لهـــم وَلاءَ

جورجي زيدان[1]

مماللــــــكُ الــــــشرقِ، أَم أَدراسُ أطــــــلالِ

وتلـــــك دُولاتُــــــه، أَم رَسْـــــمُها البــــــالي؟

أصـــــــابَها الــــــدهرُ إلاَّ في مآثرِهــــــــا

والـــــدهرُ بالنـــــاس مــــن حـــــالٍ إلى حــــال

وصــــــار مــــــا نتغنَّـــــى مــــن محاســــنها

حـــــديث ذي محنــــــةٍ عــــن صَــــفْوِه الخـــالي

(١) الأستاذ الكبير المرحوم جورجي زيدان منشئ دار الهلال الغراء هو أحد مؤسسي النهضة الصحفية في البلاد العربية، وأحد أساطين رجال العلم والأدب، الذين يرجع إلى مؤلفاتهم ويحتج بآرائهم، وقد توفي سنة ١٩١٤، بعد أن ترك خلفه من التراث العلمي والأدبي ما يكفي لتسجيل اسمه في طليعة سجل المصلحين.

إذا حفـــا الحـــقُّ أَرضـــاً هـــانَ جانبُهـــا

كـأنهـــا غابـــةٌ مــــن غـــيرِ رئبـــال

وإن تحكَّـــم فيهـــا الجهـــلُ أســـلَمَها

لفاتـــكٍ مــــن عَـــوادي الـــذل قَتَّـــال

نوابـــغَ الـــشرقِ، هُـــزُّوهُ لعـــلّ بـــه

مــــن الليـــالي جُمـــودَ اليـــائس الـــسَّالي

إن تنفخـــوا فيـــه مــــن روح البيـــانِ، ومـــن

حقيقـــةِ العلـــمِ يـــنهضْ بعـــدَ إعـــضال

لا تجعلـــوا الـــدينَ بـــاب الـــشرِّ بيـــنكُمُ

ولا محـــــــلَّ مُباهـــــــاةٍ وإدلال

مـــا الـــدينُ إلا تـــراثُ النـــاس قـــبلَكُمُ

كـــلُّ امـــرئٍ لأبيـــهِ تـــابع تـــالي

لـــيس الغلـــوُّ أَمينـــاً فِي مَـــشُورته

منـــاهجُ الرُّشْـــدِ قـــد تخفَـــى علـــى الغـــالي

لا تطلبـــوا حقّكـــم بَغْيـــاً، ولا صَـــلفاً

مـــا أبعـــدَ الحـــقَّ عـــن بـــاغٍ ومختـــال

ولا يَـــــضيعَنَّ بالإهمـــــال جانبُـــــه

فـــرُبَّ مـــصلْحةٍ ضـــاعت بإِهمـــال

كـــم هِمَّـــةٍ دَفَعَـــتْ جـــيلاً ذُرا شـــرفٍ

ونوْمَـــــة هـــــدمتْ بُنيـــــانَ أَجيـــــال

والعلـــــمُ في فـــــضله، أَو في مفـــــاخِره

ركـــنُ الممالـــكِ، صـــدرُ الدولـــةِ الحـــالي

إذا مـــــشَتْ أُمـــــةٌ في العـــــالمين بـــــه

أَبَـــــى لهـــــا اللهُ أَنْ تَمـــــشي بـــــأَغلال

يقِـــلُّ للعلـــم عنـــدَ العـــارفين بـــه

مـــا تقـــدِر الـــنفسُ مـــن حُـــبٍّ وإِجـــلال

فقِـــفْ علـــى أَهلـــه، واطلـــبْ جـــواهره

كناقـــــدٍ مُمعـــــنٍ في كـــــفّ لآل

فـــــالعلم يفعـــــل في الأرواح فاســـــدُه

مـــا لـــيس يفعـــل فيهـــا طِـــبٌّ دجَّـــال

ورُب صـــاحب درْسٍ لــــو وقفْــــتَ بـــــه

رأيـــــتَ شِـــــبه علـــــيم بـــــينَ جُهّـــــال

وتـــسبق الـــشمسَ في الأمـــصار حكمتُـــه

إلى كهـــــولٍ، وشُـــــبانٍ، وأَطفـــــال

(زيـــدانُ)، إنـــي مـــع الـــدنيا كعهـــدِك لـــي

رضَـــى الـــصديقِ، مقيـــلُ الحاســـدِ القـــالي

لـــي دَوْلـــةُ الـــشعر دونَ العـــصر وائِلـــةٌ

مَفـــاخِري حِكَمـــي فيهـــا وأَمثـــالي

إِنْ تَمْـــشِ للخـــير أَو للـــشر بـــي قـــدمٌ

أُشمِّـــرُ الـــذَّيْلَ، أو أَعثُـــرْ بأَذيـــالي

وإِنْ لَقيـــتُ ابـــنَ أُنثـــى لـــي عليـــه يـــدُ

جَحَـــدْتُ في جَنْـــبِ فـــضلِ اللهِ أَفـــضالي

وأَشـــكر الـــصُّنع في سِـــري وفي علـــني

إِن الـــصنائع تزكـــو عنـــد أَمثـــالي

وأَتـــركُ الغيـــب لله العلـــيمِ بـــه

إن الغيـــوب صـــناديقٌ بأَقفـــال

(كـــأُرْغُنِ) الـــدَّيْرِ إِكثـــاري ومَوْقِعُـــه

وكـــالأَذانِ علـــى الأَسمـــاع إِقلالـــي

رثَيْـــتُ قلبـــك أحبابـــاً فُجِعْـــتَ بِهـــم

ورُحْـــتَ مـــن فُرقـــةِ الأَحبـــابِ يُرثـــى لـــي

ومـــا عَلِمْـــتَ رفيقـــاً غـــير مُـــؤتمَنٍ

كـــالموت للمـــرءِ في حِـــلٍّ وترحـــال

أرحْـــتَ بالَـــك مـــن دنيـــا بـــلا خُلُـــقٍ

أَلـــيس في المـــوت أَقـــصى راحـــةِ البـــال؟

طالـــت عليـــك عـــوادي الـــدهرِ في خَـــشِنٍ

مـــن الثُّـــراب مـــع الأَيـــام مُنهـــال

لم نأْتِـــــه بـــــأَخٍ في العـــــيش بعـــــدَ أَخٍ

إلاّ تركنـــــا رُفاتـــــاً عنـــــدَ غِربـــــال

لا ينفـــعُ الـــنفس فيـــه وهـــيَ حـــائرةٌ

إلا زكـــاةُ النُّهَـــى، والجـــاهِ، والمـــال

مـــا تـــصنعِ اليـــومَ مِـــن خـــيرٍ تَجِـــدْه غـــداً

الخـــيرُ والـــشرُّ مِثقـــالٌ بمثقـــال

قـــد أكمـــل اللّهُ ذيّـــاك (الهـــلالَ) لنـــا

فـــلا رأَى الـــدهرَ نقـــصاً بعـــدَ إكمـــال

ولا يَـــزَلْ في نفـــوس القـــارئين؛ لـــه

كرامـــةُ الـــصُّحُفِ الأُولَـــى علـــى التـــالي

فيـــه الروائـــعُ مـــن علـــمٍ، ومـــن أدبٍ

ومـــن وقـــائعِ أيـــامٍ وأَحـــوال

وفيـــه همـــةُ نفـــسٍ زانهـــا خُلُـــقٌ

همـــا لبـــاغي المعـــالي خـــيرُ منـــوال

علَّمْـــتَ كــلَّ نَئُــومٍ في الرجــال بــه

أَنّ الحيـــــاة بآمـــــالٍ وأَعمـــــال

مــا كــان مــن دُوَلِ الإســلام مُنــصرِماً

صَـــــوَّرْته، كـــــلُّ أيـــامٍ بتمثـــال

نــرى بــه القــوم في عِــزٍّ وفي ضَــعةٍ

والملـــكَ مـــا بـــينَ إِدبـــارٍ وإِقبـــال

ومــا عرَضْــتَ علــى الألبــابِ فاكهــةً

كـــالعلمِ تُـــبرِزُه في أَحـــسنِ القـــال

وَضــعْتَ خــيرَ (روايــاتِ) الحيــاةِ، فــضَعْ

روايـــةَ المـــوتِ في أســـلوبها العـــالي

وصِــفْ لنــا كيــف تجفــو الــروحُ هَيْكَلَهــا

ويـــستدُّ البِلَـــى بالهيكـــل الخـــالي

وهـــــل تَحِـــــنُّ إليـــــه بعـــــد فُرقتِـــــه

كمـــــا يَحِـــــنُّ إلى أوطانـــــه الجـــــالي

هِـــضابُ لُبنـــانَ مـــن منعْاتِـــكَ اضـــطَربَتْ

كـــــأَن لبنـــــانَ مَرْمَـــــى بزلـــــزال

كـــذلك الأَرضُ تبكـــى فَقْـــد عالِمِهـــا

كـــالأُم تبكـــي ذهـــابَ النـــافعِ الغـــالي

يا ليلة!

وكانت ولادة بنته أمينة ووفاة والده في ساعة واحدة، فقال في ذلك:

يـــا لَيْلَـــةً سَـــمَّيْتُهَا لَيْلتَـــي ... لأَنهـــا بالنـــاس مـــا مَـــرَّتِ

أذكُرُهـــا، والمـــوتُ في ذِكرهـــا ... علـــى ســـبيلِ البّـــثِّ والعِبْـــرَةِ

لِـــيَعْلَمَ الغافِـــلُ مـــا أَمْـــسُه؟ ... مـــا يومُـــهُ؟ مـــا مُنْتَهـــى العِيـــشةِ؟

نَـــبَّهَني المقـــدورُ في جُنْحِهـــا ... وكنـــتُ بـــين النَّـــوْمِ واليَقْظَـــةِ

المـــوتُ عَجْـــلانٌ إلى والـــدي ... والوَضْـــعُ مُـــسْتَعْصٍ علـــى زَوْجَـــتي

هـــذا فتـــى يُبْكَـــي علـــى مِثلِـــه ... وهـــــذه في أَوّلِ النَّـــــشْأَةِ

وتلـــك في مِـــصْرَ علـــى حالِهـــا ... وذاكَ رَهْـــنَ المـــوْتَ والغُرْبَـــةِ

والقلـــبُ مـــا بَينَهمـــا حـــائرٌ ... مـــن بَلْـــدَةٍ أَسْـــرى إلى بَلـــدَة

حتـــى بَـــدا الـــصُّبحُ، فـــوَلى أبـــي ... وأقبلَـــتْ بعـــدَ العَنـــاءِ ابـــنَتي

فقلـــتُ أحكامُـــكَ حِزْنـــاً لهـــا ... يـــا مُخـــرجَ الحـــي مـــنَ المِّيـــتِ!

أمينة

وقال حين اكتملت بنته حولا يصفها في هذا العمر:

أَميـــنتي في عامِهـــا ... الأَولِ مِثـــلُ المَلَـــكِ

صـــالحةٌ للحُـــبِّ مِـــنْ ... كـــلِّ، وللتَّبَـــرُّك

كـــم خَفَـــقَ القلـــبُ لهـــا ... عِنـــدَ البُكـــا والـــضَّحِك

وكـــم رَعَتْهـــا العَـــيْنُ ... في الـــسُّكونِ والتَّحـــرُّك

فـــإن مَـــشَتْ فخـــاطِري ... يَـــسبِقُها كالمُمْـــسِك

أَلحَظُهـــا كأَنهـــا ... مـــن بَـــصَري في شَـــرَك

فيـــا جَـــبين الـــسَّعْدِ لـــي ... ويـــا عُيُـــونَ الفَلَـــكَ

ويـــا بيـــاضَ العـــيْشِ في ... الأَيَّـــام ذاتِ الحَلَـــك

إنّ الليـــالي وهـــيَ لا ... تَنْفَـــكُّ حَـــرْبَ أهلِـــكِ

لـــو أنـــصَفَتْكِ طِفلـــةً ... لكنـــتِ بنـــتَ الملـــكِ!

طفلةٌ لاهيَةْ

وقال يصفها بسنتها الثانية:

أَمينــــةُ، يـــا بِــنتيَ الغاليَـــة　　أهَنيـــــكِ بالـــــسنةِ الثانِيــــه

وأَســأَلُ أَنْ تَـسلَمي لـي الـسنينَ　　وأَنْ تُرْزَقـــي العَقـــلَ والعافيــــه

وأن تُقْــــسَمي لأَبَـــرِّ الرجـــالِ　　وأنْ تلِــــدى الأَنفُـــسَ العاليــــه

ولكـــنْ ســـأَلتُكِ بالوالِـــدَيْن　　وناشــــدتُك اللُّعَـــبَ الغاليــــه

أَتــدرِين مــا مــرَّ مــن حــادِثٍ　　ومــا كــان في الــسَّنةِ الماضــيه؟

وكـم بُلْـتِ في حُلـلٍ مـن حريـرٍ　　وكـم قـد كـسَرْتِ مـنَ الآنِيـه؟

وكـم سَـهرَتْ في رِضـاكِ الجفـونُ　　وأَنـــتِ علـــى غَـــضَبٍ غافِيـــه؟

وكم قد خَلتْ من أَبيكِ الجيوب　　وليـــسَتْ جُيوبُـــكِ بالخاليـــه؟

وكم قد شكا المُرَّ من عَيْشِه وأَنتِ وحَلواكِ في ناحيه؟

وكم قد مرِضْتِ، فأَسقمتِه وقمتِ، فكنتِ له شافيه؟

ويَضحكُ إن جئتِه تضحكينَ ويَبكي إذا جِئتِه باكيه!

ومن عَجَب مرَّتِ الحادثاتُ وأَنتِ لأَحدَثِها ناسيَه!

فلو حَسَدَتْ مُهجةٌ وُلْدَها حسدْتُكِ من طِفلةٍ لاهيَه!

الأنانية

ونظم هذه الحكاية فيها وفي كلب لها أسود صغير

يــا حَبَّــذا أَمينــةٌ وكلبُهــا ... تُحِبُّــهُ جــداً كمــا يُحبُّهــا

أميــنتي تحبــو إلى الحَــوْلَينِ ... وكلبُهَــا يُنَــاهِزُ الــشهرَينِ

لكِنَّهــا بَيــضاءُ مثــلُ العــاجِ ... وعبْــدُها أســوَدُ كالــدياجِي

يلزَمُهــا نهارَهــا وتلزمُــهْ ... ومِثلَمــا يُكرِمُهــا لا تُكرمُــهُ

فعنــدَها مــن شــدّةِ الإشــفاقِ ... أن تأْخُــذ الــصغيرَ بالخِنــاقِ

في كــلِّ ســاعةٍ لــه صــياحُ ... وقلَّمــا يَــنعَمُ، أو يرتــاحُ

وهــذِهِ حادثــةٌ لهــا مَعَــهْ ... تُنبيــك كيفَ استأْثرَتْ بالمنفعَة

جــاءَتْ بــه إلــيَّ ذاتَ مَــرَّةْ ... تَحمِلُــهُ وهــي بــهِ كــالبَر

فقلــتُ: أَهــلاً بــالعَرُوسِ وابنِهــا ... مــاذا يكــونُ يــا تُــرى مِــن شــأنِها؟

قالـت: "غلامـى يـا أبـي جَوْعـانُ		ومـــا لـــهُ كمـــا لنـــا لِـــسانُ

فمُرهُمُــوا يَــأْتُوا بخبــزٍ ولــبنْ		ويُحـــــضِروا آنيــــة ذاتَ ثمـــــنْ

فقُمـــتُ كالعـــادةِ بـــالمطلوب		وجئتُهـــا أنظـــرُ مـــن قريـــب

فَعَجَنَـــتْ في اللـــبنِ اللُّبابـــا		كمـــا تَرانـــا نُطعِـــمُ الكلابـــا

ثـــم أرادَتْ أَن تـــذوقَ قبلَـــه		فاســتَطْعَمَتْ بنْــتُ الكِــرام أكلَــه

هُنـــاكَ ألقَـــتْ بالـــصَّغيرِ للـــوَرا		وانـــدَفعتْ تَبكـــي بُكـــاءً مُفْتَـــرَى

تقـــول: بابـــا، أنـــا (دَحَّـــا) وهْـــوَ (كُـــخّ)

معنـــاه: بابـــا، لـــيَ وحـــدي مـــا طُـــبِخ

فقـلْ لمـنْ يَجهَـل خَطْـبَ الآنِيَـةْ		قـد فُطِـرَ الطِّفـلُ علـى الأَنانِيَـة

قصر المتنزه

وقال يصف قصر المتنزه العامر بالإسكندرية بعد رؤية معالمه الشائقة بدعوة من الجناب العالي سنة ١٨٩٥م:

مُنتَــــزهُ العبّـــاسِ للمجتَلـــى ... آمنـــــتُ بـــــاللّهِ وجَنَّاتِـــــه!
العـــيشُ فيـــه لـــيس في غـــيرهِ ... يـــا طالـــبَ العـــيشِ ولذّاتِـــهِ
قـــصورُ عـــزٍّ باذخـــاتُ الـــذُّرَى ... يودُّهـــا كـــسرَى مَـــشيداتِه
من كل راسي الأصل تحت الثرى ... مُحـــير الـــنجمِ بذِرواتـــه
دارتْ علـــى البحـــرِ ســـلاليمُهُ ... فـــبتن أَطواقـــاً لِلَبَّاتِـــه
مُنتظِمـــاتٌ مائجـــاتٌ بـــه ... مُنمقـــاتٌ مثـــلَ لُجَّاتِـــه
مـــن الرخـــامِ النـــدْرِ لكنهـــا ... تُنـــازعُ الجـــوهَرَ قيمانـــه
مـــن عمـــلِ الإنـــس سوى أَنهـــا ... تُنـــسى ســـليمانَ وجنَّاتـــه
والـــريحُ في أبوابـــه والجـــوا ـــ ... ـــري مـــائلاتٌ دون ســـاحاته

وغابُــةُ مَـــنْ ســـارَ في ظلِّهـــا يَــأَتي علـــى البُــسفورِ غاباتِـــه
بـــالطولِ والعــرضِ تُبــاهى، فــذَا وافٍ، وهـــذا عنـــد غاياتِـــه
والرَّمْــلُ حــال بالــضُّحى مُــذهَبٌ يُــصدِّئُ الظــلُّ سَــبيكاتِه
وتُرْعــةٌ لـــو لم تكـــن حُلـــوَةً أَنْـــسَتْ "لَمَـــرْتِينَ" بُحَيْراتِـــه[1]
أَوْ لم تكـــنْ ثَـــمَّ حيـــاةَ الثـــرَى لم تُبْـــقِ في الوصـــفِ لحيَّاتِـــه
وفي فـــمِ البحـــرِ لِمـــنْ جـــاءَهُ لِـــسانُ أَرضٍ فـــاقَ فُرْضـــاتِه
تَنْحَـــشِدُ الطَّيْـــرَ بأكنَافِـــه ويَجمـــعُ الـــوحشُ جماعاتِـــه
مِـــنْ معِـــزٍ وَحْـــشِيَّةٍ، إن جَـــرَتْ أَرَتْ مِـــن الجـــرْيِ نِهاياتِـــه
أو وثَبـــتْ فـــالنَّجْمُ مـــن تحتِهـــا والـــسُّورُ في أسْـــرِ أسِـــيراتِه
وأرنـــبٌ كالنَّمـــلِ إن أحـــصيَتْ تَنْبُـــتُ في الرَّمـــلِ وأبياتـــه
يَعلـــو بهـــا الـــصَّيْدُ ويعلـــو إذا مـــا قيْـــصَرٌ ألقَـــى حِبالاتـــه
ومـــن ظِبـــاءٍ في كِناســـاتِها تَهـــيجُ للعاشِـــقِ لَوْعاتِـــه
والخَيْـــلُ في الحـــيِّ عراقِيَّـــةٌ تَحمِـــي وتُحمَـــى في بُيوتاتـــه
غُـــرٌّ كأَيـــامِ عزيـــزِ الـــوَرَى مُحجَّـــلاتٌ مِثـــلَ أَوقاتـــه

---

(١) لامرتين: شاعر فرنسا العظيم. وقصيدته عن "البحيرة" ذائعة وقد ترجمت إلى العربية عدة مرات.

البحر الأبيض

نظمت بالإسكندرية في صيف سنة ١٩٣١م:

أَمِـــــنَ البحــــــرِ صــــائغٌ عَبْقَــــرِيٌّ
بالّرمــــالِ النَّـــواعِمِ البـــيضِ مُغْـــرَى؟!

طـــاف تحـــتَ الــضُّحَى علـــيهنَّ، والجـــوْ
هَــــرُ في سُـــــوقِهِ يُبـــــاعُ ويُـــــشْرَى

جِئنَـــــــهُ في مَعاصــــــمٍ ونُحــــــورٍ
فكـــــسا مِعْـــــصَماً، وآخــــرَ عَـــــرَّى

وأَبَـــــي أَن يُقلِّـــــدَ الـــــدُّرَّ واليــــا

قــــوتَ نحْــــراً، وقلَّــــدَ المــــاسَ نحْــــراً

وتَــــــرى خاتمــــــاً وراءَ بَنــــــانٍ

وبَنانــــــاً مــــــن الخــــــواتمِ صِــــــفْراً

وسِـــــواراً يَـــــزينُ زَنْــــدَ كعَــــابٍ

وسِـــــواراً مـــــن زَنْــــدِ حـــــسناءَ فــــرّا

وتــــرى الغِيـــدَ لُؤلـــؤا ثَـــمَّ رَطْبـــاً

وجُمانـــــاً حَـــــوَالَي المــــاءِ نَثْــــراً

وكــــأَنَّ الـــــسماءَ والمــــاءَ شِــــقَّا

صَـــــدَفٍ، حَمِّـــــلا رفيفـــــاً ودُرَّا

وكــــأَنَّ الـــــسماءَ والمــــاءَ عُــــرْسٌ

مُتْــــرَعُ المهرَجــــان لَمْحــــاً وعِطــــرا

أو رَبيـــعٌ مــــن ريـــشةِ الفــــنِّ أبهَـــى

مِـــن ربيـــع الرُّبـــى، وأَفـــتنُ زَهْـــرا

أو تهاويـــــــــلُ شـــــــاعرٍ عَبقـــــــريٍّ

طـــــارَحَ البحـــــرَ والطبيعـــــةَ شـــــعرا

يـــــا سِــــــواريْ فَيْـــــرُوزَجٍ ولُجَـــــيْنٍ

بهمـــــا حُلِّيَـــــتْ معاصِـــــمُ مِـــــصْرا

في شُـــــعاعِ الـــــضُّحَى يعـــــودان ماســـــاً

وعلـــــى لَمْحَـــــةِ الأصـــــائلِ تِبْـــــرا

ومَـــــشَتْ فيهمـــــا النجـــــومُ فكانـــــت

في حَواشِـــــيهما يواقيـــــتَ زُهْـــــرَا

لـــــكَ في الأرض موكـــــبٌ لـــــيس يـــــأْلو

الـــــرِّيحَ والطـــــيرَ والـــــشياطينَ حَـــــشْرا[1]

سِـــــرْتَ فيـــــه علـــــى كنـــــوز (سُـــــليما

نَ) تعـــــدُّ الخُطـــــى اختيـــــالاً وكِبْـــــرا

(١) ليس يألو الريح... الخ: ليس يقصر عنها.

وتَرنَّمْـــــــتَ في الركـــــابِ، فقلنــــــا

راهــــبٌ طـــــاف في الأناجيــــــل يَقـــــرا

هــــــو لحـــــــنٌ مُــــــضَيَّعٌ، لا جوابـــــاً

قـــــــد عرفنــــــا لـــــــه، ولا مُــــــستقَرَّاً

لـــــــك في طيِّــــــهِ حــــــديثُ غــــــرامٍ

ظَـــــلَّ في خـــــاطر المُلَحِّــــــنِ سِــــــرَّا

******

قـــــــد بعثنـــــــا تحيَّـــــــةً وثنـــــاءً

لـــــكَ يـــــا أرفــــعَ الزواخِــــر ذِكــــرا

وغـــــشيناكَ ســـــاعةً تَنْـــــبِش المـــــا

ضـــــي نبـــشاً، وتقتُـــلُ الأمـــسَ فِكــــرا

وفتحنـــــا القـــــديمَ فيــــك كتابــــاً

وقرأْنـــــا الكتـــــابَ ســـــطرّاً فـــــسَطْرا

ونـــــشَرْنا مـــــن طــــيِّهنَّ الليـــــالي

فلَمَحنـــــا مـــــن الحـــــضارةِ فَجْــــرا

ورأينـــــا مـــــصراً تُعلِّـــمُ (يونـــا

نَ)، ويونـــانَ تَقـــبِسُ العلـــمَ مـــصرا

تِلـــكَ تأتيـــكَ بالبيـــانِ نبيَّـــاً

عبقريـــاً، وتِلـــك بـــالفنّ سِـــحْرا

ورأينـــا المنـــارَ في مطلـــع الـــنَّجْمِ

علـــى برقـــهِ المُلَمَّـــحِ يُـــسرى

شـــاطئٌ مثـــلُ رُقعـــةِ الخُلـــدِ حُـــسناً

وأديـــمِ الـــشبابِ طِيبـــاً وبِـــشرا

جَـــرَّ فيْرُوزَجـــاً علـــى فِـــضَّةِ المـــا

ءِ، وجَـــرَّ الأصـــيلُ والـــصبح تِـــبرا

كلمَـــا جئتَـــهُ تهلَّـــل بِـــشرا

مـــن جميـــع الجهـــاتِ، وافـــترَّ ثَغْـــرا

انثنَـــى مَوجَـــةً، وأقبـــلَ يُرخـــي

كِلَّـــةً ماضـــياتٍ تَلُـــفُّ بالـــسَّهلِ وَعْـــرا

رُبمـــــا جـــــاءَ وَهْـــــدَةً فـــــتردَّى

فِي المَهـــاوِي، وقـــام يَطفـــرُ صَـــخرا

وتَـــرى الرمـــلَ والقـــصورَ كأَيْـــكٍ

ركـــب الـــوَكْرُ فِي نواحيـــهِ وَكْـــرا

وتَـــرى جَوْسَـــقاً يُـــزَيِّنُ رَوْضـــاً

وتـــرى رَبـــوةً تـــزيِّنُ مـــصرا

* * * * *

سَـيِّدَ المـاءِ، كـم لنـا مـن (صـلاحٍ)

و(علـــى) وراءَ مائـــكَ ذِكـــرى[1]

كـم مَلأنـاكَ بالـسَّفينِ مَـواقيرَ[2]

كـشُمِّ الجبـالِ جُنـداً ووَفـرا!

شـاكياتِ الـسلاحِ يَخـرُجنَ مـن مـصرٍ

بملمومـــةٍ، ويَـــدْخلن مِـــصرا

(١) يريد صلاح الدين الأيوبي ومحمد علي باشا.

(٢) مواقير: موقرة: مثقلة بما تحمل.

شـــــارعاتِ الجنـــــاحِ في ثَـــــبَجِ المـــــا

ءِ كنـــسرٍ يـــشدُّ في الـــسُّحب نَـــسْرا

وكـــــأنَ اللُّجـــــاجَ حـــــينَ تَنَـــــزَّى

وتـــسدُّ الفِجـــاجَ كـــرًّا وفـــرًّا...

... أجـــمٌ بعـــضُهُ لـــبعضٍ عـــدو

زحَفَـــتْ غابـــةٌ لتمزيـــق أخـــرَى!

قـــذَفَتْ ههنـــا زئـــيراً ونَابـــاً

ورَمَـــت ههنـــا عُـــواء وظُفـــرا

أنـــتَ تَغلـــي إلى القيامـــةِ كالقِـــدْ

رِ، فـــلا حـــطَّ يومُهـــا لـــكَ قِـــدْرا

الجامعةُ المصريَّة

"ألقاها في حفلة افتتاح الجامعة المصرية سنة ١٩٣١"

تـــاجَ الـــبلادِ تحيـــةٌ وســـلامٌ ... رَدّتــك مــصرُ وصــحَّت الأحــلامُ

العلـمُ والملـكُ الرفيـعُ؛ كلاهمـا ... لـك ــ يـا "فـؤادُ" ــ جلالـةٌ ومقـامُ

فكأنـــك المـــأمونُ في سُـــلطانه: ... في ظلِّـــك الأَعـــلامُ والأقـــلامُ[1]

أهـدَى إليـك الغـربُ مـن ألقابـه ... في العلـمِ مـا تـسمو لـه الأعـلام

مـن كـلِّ مملكـةٍ وكـلِّ جماعـةٍ ... يـسعى لـك التقـديرُ والإعظـام

* * *

ما هذه الغُرفُ الزواهرُ كالضُّحى ... الـــشامخاتُ كأنهـــا الأعـــلامُ؟

مـن كـلِّ مرفـوعِ العمـودِ مُنَـوِّرٍ ... كالـصبحِ مُنْـصَدِعٌ بـه الإظـلام

تـــتحطَّم الأُميَّـــةُ الكـــبرى علـــى ... عَرَصـــاته، وتمـــزِّقُ الأوهـــام

(١) المأمون بن الرشيد العباسي، وعصره من أزهى عصور الدولة الإسلامية.

هــذا البنــاءُ الفــاطميُّ مَنــارةٌ	وقواعــدٌ لحــضارةٍ ودِعــام
مهــدٌ تَهيَّــأَ للوليــدِ، وأيكــةٌ	سَــيرِنٌّ فيهــا بُلبــلٌ وحَمــام
شُــرُفاته نــورُ الــسبيلِ، وركنُــه	للعبقريّــةِ مَنــزلٌ ومُقــام
وملاعبٌ تجرِي الحظوظُ مع الصِّبا	في ظلِّهــنَّ، وتُوهَــبُ الأقــسام[1]
يمــشي بهــا الفِتيــانُ، هــذا مالــه	نفــس تُــسَوِّده، وذالــك عِــصامُ[2]
ألقَــى أواســيهُ، وطــال برُكنــه	نفــسٌ مــن الــصِّيدِ الملـوكِ كُـرام[3]
مــن آلِ إسماعيــلَ، لا العَمَّــاتُ قــد	قــصَّرن عــن كــرم، ولا الأعمــام
لم يُعْــطَ همَّــتَهم، ولا إحــسانهم	بــانَ علــى وادي الملــوك هُمــام
وبنــى فــؤادٌ حائطيْــه، يُعينــه	شــعبٌ عــن الغايــاتِ لــيس يَنــام

* * *

---

(١) الأقسام: الحظوظ.

(٢) يشير إلى قول النابغة:

نفــس عــصام ســودت عــصاما وعلمتــه الكــر والإقــداما

وعصام حاجب النعمان بن المنذر، وإليه ينسب كل عصامي.

(٣) الأواسي: الدعائم والأبنية المحكمة.

أُنظر أبا الفاروقِ غرسَكَ، هل دَنَتْ ... ثمراتُــه، وبــدت لــه أعــلامُ؟
وهل انثنى الوادي وفي فمه الجَنَى ... وأتــى العــراقُ مُــشاطراً والـشام؟
في كــلِّ عاصــمةٍ وكــلِّ مدينــةٍ ... شُبانُ مِصْرَ على المناهل حـاموا
كـم نستعيرُ الآخـرين ونَجتَـدِي ... هيهــات! مــا للعاريــات دوام
اليـومَ يرْعـى في خمائِـلِ أرضِـهم ... نــشأ إلى داعــي الرَّحيــل قِيــام
حــبٌّ غَرَسْـتَ براحَتيْـكَ، ولم يَـزلْ ... يَسقيه مـن كلتـا يـديك غَمـام
حتـى أنـافَ علـى قـوائمِ سُوقهِ ... ثمــراً تَنــوءُ وراءَه الأكمــام
فقريبُــه للحاضــرين وليمــةٌ ... وبعيــدُه للغــابرين طعــام
عِظـةٌ لفــاروقٍ وصــالحِ جيلِــه ... فيمــا يُنيــلُ الـصبرُ والإقــدام
ونَمــوذجٌ تحــذُو عليــه، ولم يَــزَلْ ... بــسَراتهمْ يتــشبَّهُ الأقــوام
شــيَّدت صــرْحاً للــذخائرِ عاليــاً ... يــأْوِي الجمــالُ إليــه والإلهــام
رفٌّ عُيــونُ الكتْــبِ فيــه طوائــفٌ ... وجلائــلُ الأســفارِ فيــه رُكــام

إســكندريَّةً، عـاد كنـزُّكِ سـالماً   حتـى كـأنْ لم يلتهمـه ضِـرامُ[1]

لَّمتْـهُ مـن لهَـبِ الحريـق أنامـلٌ   يـرْدٌ علـى مـا لامَـسَتْ، وسَـلام

وأمـستُ حراحَتَـكِ القديمـة راحـةٌ   جُـرْحُ الزمـانِ بعُرفهـا يَلتـام

تهَـبُ الطريـفَ مـن الفَخـارِ، وربّمـا   بعَثْـتْ تَليـدَ المجـدِ وهْـوَ رِمـام

* * *

أرأيـتَ رُكـنَ العلـم كيـف يُقـامُ؟   أرأيـتَ الاسـتقلالَ كيـف يُـرامُ؟

العلـمُ في سُـبلِ الحـضارةِ والعُـلا   حـاد لكـلِّ جماعـةٍ، وزِمـام

بـاني الممالـكِ حـينَ تنـشُدُ بانيـاً   ومَثابـةُ الأوطـانِ حـينَ تُـضام

قامـت رُبـوعُ العلـم في الـوادي، فهـل   للعبقريّـةِ والنبـوغِ قيَـام؟

فهمـا الحيـاةُ، وكـلُّ دُورِ ثقافـةٍ   أو دُورِ تعلـيمٍ هـي الأجـسام

مـا العلـمُ مـا لم يـصْنعاه حقيقـةٌ   للطـالبين، ولا البيـانُ كـلام

يـا مهرجـانَ العلـمِ، حولـك فرْحـةٌ   وعليـك مـن آمـال مَـصرَ زِحـام

---

(١) يشير إلى حديث التاريخ عن حريق مكتبة الاسكندرية.

مـا أشـبهتْكَ مواسـمُ الـوادي، ولا	أعيـاده في الـدهر، وهْـي عِظـام
إلا نهـاراً في بـشاشة صُـبحهِ	قعـد البُنـاةُ، وقامـت الأهـرام
وأطـال "خوفـو" مـن مواكـبِ عِـزِّه	فـاهتزَّت الرَّبَـواتُ، والآكـام
يُـومي بتـاجٍ في الحـضارة مُعـرقٍ	تعْنـو الجِبـاهُ لعـزه، والهـام
تـاجٌ تنقَّـلَ في العُـصورِ مُعَظَّمـاً	وتألفـتْ دولٌ عليـه جِـسام
لما اضـطلعتَ بـه مَشَى فيـه الهدى	ومراشـدُ الدسـتورِ، والإسـلام
سَبقتْ مواكبُـك الربيـعَ وحَـسنَه	فالنيـلُ زهـوٌ، والـضِّفافُ وِسـام
الجيـزةُ الفيحـاءُ هـزَّت منكِبـاً	سـبع النـوالُ عليـه والإنعـام
لبـست زخارفهـا، ومـسَّتْ طِيبهـا	وتـردّدت في أيْكهـا الأنغـامُ
قـد زدتهـا هرَمـاً يُحَـجُّ فِنـاؤه	ويَـشدُّ للـدنيا إليـه حِـزام
تقـفُ القـرونُ غـدا علـى درجاتـه	تُملِـي الثنـاءَ، وتكتـبُ الأيـام
أعـوامُ جهـدٍ في الـشبابِ، وراءَهـا	مـن جهـد خـيرِ كهولـةٍ أعـوام
بلـغَ البنـاءُ علـى يـديك تمامَـهُ	ولكـل مـا تبنـى يـداك تمـام

سعد باشا زغلول[1]

شـيَّعوا الـشمس ومـالوا بـضحاها ... وانحنـى الـشرقُ عليهـا فبكاهـا

ليـتني في الركـبِ لمـا أفلَـتْ ... (يوشـعٌ)، همَّـتْ، فنـادى، فثناهـا[2]

جلَّـلَ الـصبحَ سـواداً يومُهـا ... فكـأنّ الأرض لم تخلـع دُجاهـا[3]

انظـروا تَلْقـوا عليهـا شـفَقاً ... مـن جِراحـاتِ الـضحايا ودِماهـا

وتَـرَوا بـينَ يـديْها عَـبرةً ... مـن شـهيدِ يقطـرُ الـورد شَـذاها

آذنَ الحـقُّ ضَـحاياها بهـا ... وَيْحـهُ!! حتـى إلى المـوتى نَعاهـا

* * *

كفّنوهـا حُـرَّةً عُلْويّـةً ... كَـسَتِ المـوتَ جـلالاً، وكـساها

مِـصرُ في أكفانهـا إلا الهـدى ... لحمـةُ الأكفـانِ حـقٌّ وسُـداها[4]

---

(١) زعيم مصر الخالد سعد باشا زغلول المتوفى سنة ١٩٢٧.

(٢) يوشع: أحد أنبياء بني إسرائيل، دعا الله أن يؤجل الغروب فأجابه وثنى الشمس عن غروبها.

(٣) جلل الصبح: كساه وغطى ضوءه.

(٤) اللحمة: ما سدى به الثوب، والسدى: ضد اللحمة.

خطــر الــنعشُ علــى الأرض بهــا | يحْسِرُ الأبصارَ في النعش سَناها[1]
جاءَهــا الحــقُّ، ومــنْ عادتهــا | تــؤثرُ الحــقَّ ســبيلاً واتِّجاهــا[2]
مــا دَرتْ مــصرٌ: بــدفن صُــبِّحتْ | أم على البعثِ أفاقَتْ مِنْ كَراها؟
صَــرَختْ تَحــسبها بنْــتَ الــشَّرى | طلَبَــتْ مــنْ مِخْلَــب المــوتِ أباهــا[3]
وكــأن النــاسَ لمــا نَــسَلوا | شُعبُ السيلِ طَغَتْ في مُلتقاها
وضعوا الــرّاحَ على الــنعشِ كما | يلمَــسون الــرُّكنَ، فارتــدّت نزاهــا
خفَــضوا في يــوم (ســعد) هــامَهم | و(بــسعدٍ) رَفعــوا أمــس الجِباهــا

* * *

ســائلوا زحلــةَ" عــن أعراســها | هل مَشى الناعي عليها فمحاها؟[4]
عطَّــلَ المُــصطافَ مــن سمّــاره | وجَــلا عــن ضَفَّة الــوادي دُماهــا[5]
فــتحَ الأبــوابَ لــيلاً (دَيرُهــا) | وإلى (النــاقوس) قامــتْ بيعَتاهــا

(١) يحسر الأبصار: أي يردها كليلة ضعيفة.

(٢) الحق الأول: يقصد به الموت والحق الثاني: يقصد به العدل.

(٣) بنت الشرى: أنثى الأسد.

(٤) يشير البيت إلى أن أمير الشعراء وقت نعى الفقيد كان يصطاف في زحلة إحدى مصايف لبنان.

(٥) السمار: جمع سامر، وهم إخوان الحديث في المساء. والضفة من النهر ومن الوادي: الجانب. الدمى: جمع دمية. وهي الصورة يعملها المثال من الرخام.

صــــدَعَ الــــبرقُ الـــدُّجى، تنــــشره ... أرضُ (ســوريا)، وتطويــه سَــماها[1]

يحمِـــلُ الأنبـــاءَ تَـــسرى موْهنـــاً ... كعــوادي الثُّكـل في حــرِّ سُــراها[2]

عــــرضَ الـــشكُّ لهـــا فاضـــطربت ... تطـــأُ الآذانَ همْـــساً والـــشِّفاها

قلــتُ: يــا قــوم اجمعــوا أحلامكــم ... كــلُّ نفــسٍ في ورِيــديها رَداهــا[3]

* * *

يـــا عـــدوَّ القيـــدِ لم يلمـــحْ لـــه ... شــــبَحاً في خطَّــــةٍ إلا أباهــــا

لا يــضِقْ درْعــكَ بالقيــد الــذي ... حــــزَّ في سُــوق الأوالــي وبَراهــا

وقـــعَ الرُّسْـــلُ عليـــه، والتَـــوتْ ... أرجـــلُ الأحـــرارِ فيـــه فعَفاهـــا

يـــا رُفاتـــاً مثـــلَ رَيْحـــانِ الـــضُّحى ... كلَّلــتْ (عــدْنٌ) بهــا هــامَ رُباهــا[4]

وبقايـــا هيكـــل مـــن كـــرمٍ ... وحيـــاة أتـــرَعَ الأرض حَياهـــا[5]

ودّع العــــــدلُ بهــــا أعلامــــه ... وبكــتْ أنظمــةُ الــشُّورى صُــواها[6]

---

(١) صدع: شق وقطع.

(٢) الموهن: نصف الليل، أو بعده بنحو ساعة.

(٣) الوريدان: مثنى الوريد، أحد شرايين الجسم.

(٤) عدن: الجنة. وهام رباها: أي رؤوس ربواتها. والربوات: الأمكنة المرتفعة فيها.

(٥) أترع: ملأ. والحيا: المطر.

(٦) الصوى: جمع صوة ـ بضم الصاد ـ وهي حجر يوضع في الطريق كعلامة يهتدى بها.

حَـــضنتْ نعـــشك، والتفَّـــتْ بـــه رايـــةٌ كنـــتَ مـــن الـــذلّ فِـــداها

ضــمَّت الــصدرَ الــذي قــد ضــمّها وتلقّـــى الـــسهمَ عنهـــا فوقاهـــا

عجـــبي منهـــا ومـــن قائـــدها!! كيف يحمي الأعزلُ الشيخُ حِماها؟

* * *

مِنْبَـــرُ الـــوادي ذَوَت أعـــوادُه مـــن أواســيها وجفَّـــت مـــن ذُراهـــا

مَـــن رَمَـــى الفـــارسَ عـــن صَـــهوتِها ودَهـــا الفُـــصحى بمـــا ألجَـــمَ فاهـــا؟

قـــدرٌ بالمُـــدنِ ألْـــوى والقُـــرى ودَهـــا الأجبـــال منـــه مـــا دَهاهـــا

غـــال (بَـــسْطورا) وأردَى عُـــصبةً لمـــستْ جُرثومـــةَ المـــوتِ يّـــداها

طافـــت الكـــأسُ بـــساقي أمّـــةٍ مـــن رَحيـــقِ الوطنيّـــاتِ ســـقاها

عطِلـــتْ آذانهـــا مـــن وتَـــرٍ ســـاحرٍ رنَّ مليَّـــاً فـــشجاها

أرغُـــنٌ هـــامَ بـــه وجْـــدانُها وأذانٌ عـــشِقتْه أذُناهـــا

كـــلَّ يـــومٍ خطبـــةٌ روحيّـــةٌ كـــالمزامير وأنغـــامِ لُغاهـــا

دلَّهـــتْ مـــصراً ولـــو أنَّ بهـــا فلَـــوَاتٍ دلَّهـــتْ وحْـــش فَلاهـــا

ذائـــدُ الحـــقِّ وحـــامي حَوْضِـــه أنفَـــذَتْ فيـــه المقـــاديرُ مُناهـــا

أخَـــذَتْ (ســـعداً) مـــن (البيـــتِ) يـــدٌ تأخـــذُ الآســـادَ مـــن أصـــل شـــراها

لـــو أصـــابَت غـــيرَ ذي رُوحٍ لمـــا ســـلمَت منهـــا الثُّريّـــا وسُـــهاما

تتحـــــدّى الطـــــبّ في قفازهــــا | علّـــةُ الـــدهر الـــتي أعيـــا دَواهـــا
مـــــن وراءِ الأذنِ نالـــــتْ ضَـــيْغَماً | لم يَنَـــــلْ أقرانــــه إلا وِجاهـــــا
لم تـــصارِحْ أصْـــرحَ النـــاس يـــداً | ولـــــساناً، ورُقـــــاداً، وانتباهـــــا

* * *

هـــــذه الأعـــــوادُ مـــــن آدَمَ لمْ | يهْــدَ خُفَّاهـــا، ولم يعْـــرَ مَطاهـــا
نقَلَــتْ (خوفـــو)، ومالـــتْ (بمِنـــا) | لم يفُت حيًّا نـصيبٌ مـن خُطاهـا[1]
تَخلــطُ العُمــرينِ: شــيْباً، وصِـباً | والحيـــاتين: شَـــقاءً، ورَفاهـــا
زَوْرَقٌ في الــدمعِ يطفـــو أبـــداً | عـــرَفَ الـــضَّفَّةَ إلا مـــا تلاهـــا
تَهلَـــع الثَّكلـــى علـــى آثـــاره | فـــإذا خـــفَّ بهـــا يومـــاً شـــفاها

* * *

تـــسكُبُ الـــدمعَ علـــى (سـعدٍ) دمـــاً | أمـــةٌ مـــن صـــخرةِ الحـــقِّ بناهـــا
مـــــن ليَـــانٍ هـــو في يَنْبوعِهـــا | وإبــاءٍ هـــو في صُـــمِّ صَـــفاها
لُقِّـــنَ الحـــقَّ عليـــه كهلُهـــا | واســتقى الإيمــانَ بــالحقِّ فَتاهــا
بـــذَلتْ مـــالاً، وأمْنـــاً، ودمـــاً | وعلـــى قائـــدها ألقَـــتْ رَجاهـــا

---

(١) خوفو، ومنا: من ملوك مصر الفراعنة.

حمَّلتـــــه ذمَّـــــةً أوفـــــى بهــــا واتلتْـــــه بحقــــوقٍ فقــــضاها

ابــــنُ ســــبعينَ تلقَّـــى دونهــــا غُربــــةَ الأســـرِ، ووَعْثــاءَ نَواهـــا[1]

ســــفرٌ مــــن عـــدَنَ الأرضِ، إلى منــــزلٍ أقـــرَبُ منـــه قُطُباهـــا

قـــاهرٌ ألقَـــى بـــه في صــخرةٍ دفـــعَ النـــسرَ إليهــا فأَواهـــا

كَرِهـــتْ منزلهـــا في تاجـــه دُرّةٌ في البحـــرِ والـــبرِّ نفاهـــا

اســـألوها، واســـألوا شـــانئَها لمَ لمْ ينــفِ مــن الــدُّرِّ سِــواها؟

ولَـــدَ الثَّـــورةَ ســـعدٌ حـــرَّةً بحيــاتي ماجــد حــرٍّ نَماهـــا

مـــا تمنَّـــى عيرَهـــا نـــسلاً، ومَـــنْ يلِــدِ الزَّهـــراءَ يزْهــدْ في ســـواها

ســـالت الغابـــةُ مـــن أشـــبالها بـــينَ عيْنيـــهِ وماجَـــتْ بلبَاهـــا[2]

بـــارك الله لهـــا في فرعِهـــا وقَـــضَى الخـــيرَ لمـــصرٍ في جَناهـــا

أوَلم يكتُـــبْ لهـــا دُســـتورَها بالــدمِ الحــرِّ، ويرْفــعْ مُنتــداها؟[3]

قـــد كتبناهـــا، فكانـــت صـــورةٌ صــدْرُها حـــقٌّ وحـــقٌّ مُنتهاهـــا

رقـــدَ الثـــائرُ إلا ثـــورةً في ســبيل الحــقِّ لم تَخمـد جُـذاها

قـــد تولاهـــا صـــبيًّا فكَـــوَتْ راحَتَيْـــهِ، وفَتيًّـــاً فرعاهـــا[4]

---

(١) الوعثاء: الطريق العسر، أو المشقة.

(٢) اللبا: جمع لباة ـ كقطاة ـ وهي أنثى الأسد ـ

(٣) المنتدى: البرلمان.

(٤) يشير إلى عمل سعد باشا في الثورة العربية وهو في مقتبل شبابه.

جـــالَ فيهـــا قلمـــاً مُستنهـــضاً ولـــساناً كلَّمـــا أعْيـــتْ حَـــداها[1]

ورمَـــى بـــالنفس في بُركانهـــا فتلقَّـــى أوَّلَ النـــاسِ لَظاهـــا

أعلمـــتم بعـــد (موســـى) مِـــنْ يـــدٍ قـذَفتْ في وجـهُ (فِرْعـونَ) عَـصاها؟[2]

وطِئـــــتْ نادبـــــةً صـــــارخةً شـاهَ وجـهُ الـرِّقِّ - يـا قـوم - وشـاها[3]

طفِـــرَتْ بـــالكِبْر مـــن مُـــستكبرٍ ظـــافرِ الأيّـــامِ مَنـــصورِ لِواهـــا

القَنـــا الـــصُّمُّ نَـــشاوى حولَـــهُ وســـيوفُ الهنـــدِ لم تَـــصْحُ ظُباهـــا

* * *

أيـــن مِـــنْ عـــيْنيَّ نفـــسٌ حُـــرَّةٌ كنـــتُ بـــالأمسِ بعـــينيَّ أراهـــا؟

كلمـــا أقبلـــت هـــزَّتْ نفـــسها وتَواصـــى بـــشرُها بـــي ونـــداها

وجـــرَى الماضـــي، فمـــاذا ادَّكَـــرَتْ وادِّكـارُ الـنفسِ شـيءٌ مـن وَفاهـا؟

ألمـــــحُ الأيَّـــــامَ فيهـــــا، وأرى مـــن وراء الـــسِّنِّ تمثـــالَ صـــباها

لـــستُ أدري حـــينَ تَنـــدى نَـــضرةً علـــتِ الـــشَّيبَ، أم الـــشَّيبُ علاهـــا؟

حلَّـــــت الـــــسبعون في هيكلـــــها فتَـــداعى وهْـــيَ موْفـــورٌ بناهـــا

روْعـــةُ النـــادي 'ذا جـــدَّتْ، فـــإن مَزحـــتْ لم يُـــذهب المَـــزحُ بَهاهـــا

---

(١) أعيت: تعبت. حداها. من قولهم: حدا الإبل، أي ساقها وزجرها.

(٢) إشارة إلى تحدي موسى لفرعون وسحرته بالعصا، فكانت كما ورد في القرآن الكريم: ((تلقف ما يأفكون)).

(٣) شاه وجه الرق: أي قبح.

يظفَــرُ العُــذرُ بأقــصى سُــخطها ... ويَنـــالُ الـــودُّ غايـــاتِ رِضـــاها

ولهـــا صـــبرٌ علـــى حُـــسَّادها ... يُـشبهُ الـصَّفحَ، وحلـمٌ عـن عِـداها

لـــستُ أنـــسى صــفحةً ضــاحكةً ... تأخـذُ الـنفسَ وتجـري في هواهـا

وحـــديثاً كرِوايـــات الهـــوى ... جـدَّ للـصَّبِّ حـنينٌ فرواهـا

وقنـــاةً صــعْدةً لـــو وُهبـــتْ ... للـسِّماكِ الأعـزلِ اختـالَ وتاهـا[1]

أيـــن منَّـــى قلـــمٌ كنـــتُ إذا ... سمتُـه أن يَرثـي الـشمسَ رَثاهـا؟

خـــانني في يـــوم (ســـعدٍ)، وجـــرى ... في المرافـئ فكَبـا دونَ مَـداها

في نعـــيم اللّه نفـــسٌ أُوتيـــتْ ... أنعُـمَ الـدنيا فلـم تـنسَ تُقاهـا

لا الحِجـــى لمّـــا تنَـــاهى غرّهـــا ... بالمقـاديرِ، ولا العلـمُ زَهاهـا

ذَهبَـــتْ أوّابـــةً مُؤمنـــةً ... خالـصاً مـن حَـيرةِ الـشكِّ هُـداها

آنَـــستْ خلْقـــاً ضـــعيفاً ورأتْ ... مـن وراءِ العـالمِ الفـاني إلهـا

مـــا دعاهـــا الحـــقُّ إلا ســـارَعتْ ... ليتَـه يـومَ "وَصـيفٍ" مـا دعاهـا[2]

---

(١) القناة: الرمح. والصعدة: هي التي نبتت مستوية. فلا تحتاج لتثقيف. والسماك: أحد كوكبين نيرين، يوصف أحدهما بالرامح، لأن أمامه كوكباً صغيراً يسمى رمح السماك ورايته، وبوصف الآخر بالأعزل. حيث لا يوجد أمامه شيء. يقول أن له قواماً لو منح للسماك الأعزل في السماء لاختال به وتباهى على السماك الرامح.

(٢) وصيف: يقصد مسجد وصيف، وهي القرية التي توجد فيها ممتلكات الزعيم، والتي قضى بها.

فوزي الغزي[1]

جـرحٌ علـى جـرحٍ! حنانَـكِ (جِلَّـقُ)	حُمِّلتِ مـا يُـوهي الجبـالَ ويُزهـقُ[2]
صـبراً لبـاة الـشرقِ؛ كـلُّ مـصيبةٍ	تبْلى على الصبر الجميلِ وتخلـق[3]
أنـسيتِ نـار الباطـشين، وهـزّةً	عرَتِ الزمانَ، كأن (روما) تُحرَقُ[4]
رعنـاءَ أرسـلها ودسّ شُـواظَها	في حجـرةِ التـاريخ أرعـنُ أحمـق[5]
فمـشتْ تُحطِّـم بـاليمين ذخـيرةً	وتلُـصُّ أخـرى بالـشمال وتَـسرق؟
جُنَّـتْ، فضعـضعها، وراضَ جِمَاحهـا	من نشئكَ الحُمْسِ الجنونُ المُطبق
لقـيَ الحديـدُ حميَّـةً أمَويَّـة	لا تكتـسي صـدأً، ولا هـي تُطـرق
يـا واضـعَ الدّسـتورِ أمـس كخُلقـه	مـا فيـه مـن عـوَجٍ، ولا هـو ضـيِّق

(١) فوزي الغزي: هو أحد سراة الزعماء في الشام. وأحد ألوية الثورة العربية في نهضتها العظمى، توفي مسموماً وأقيمت له حفلة تأبين في دمشق، وألقيت فيها هذه القصيدة العصماء في سنة ١٩٢٠.

(٢) جلق (بشدة اللام مفتوحة أو مكسورة): دمشق.

(٣) اللباة: أنثى الأسد.

(٤) يشير إلى ضرب الفرنسيين لها بالمدافع. وحادثة حرق روما: هي إحدى الحوادث التاريخية الكبرى، وهي مضرب المثل منذ صار نيرون مثلاً للظلم والجبروت.

(٥) الشواظ (بضم الشين وكسرها): لهب لا دخان فيه.

نظــمٌ مــن الــشورى، وحكــمٌ راشــدٌ ... أدبُ الحـــضارةِ فيهمـــا والمنطـــق

لا تخـــشَ ممـــا ألحقهـــا بكتابـــه ... يبقَـى الكتـابُ ولـيس يبقـى المُلْحـق

ميْــتَ الجــلالِ، مــن القــوافي زفْــرةٌ ... تجـــري، ومنهـــا عبْــرَةٌ تترقـــرق

ولقـــد بَعثتُهمـــا إليـــكَ قـــصيدةٌ ... أفأنــتَ مُنتظِــرٌ كعهــدكَ شــيِّق؟

أبكـــى ليالينـــا القِـــصار وصـــحبةً ... أخْـذتْ مُخيلتهـا تجـيشُ وتَـبرق[1]

لا أذكـــرُ الـــدنيا إليـــك؛ فربّمـــا ... كرِه الحديثَ عن الأجاجِ المغـرق[2]

طُبعـت مـن الـسّمّ الحيـاةُ، طعامُهـا ... وشـــرابها، وهواؤهـــا المتنـــشَّق

والنـــاسُ بـــين بطيئِهـــا وذُعافهـــا ... لا يعلمـون بـأيِّ سمَّيهـا سُـقُوا[3]

أمـــا الـــوليُّ فقـــد ســـقاكَ بـــسمِّه ... مـا لـيس يـسقيك العـدوُّ الأزرق[4]

طلبـوك والأجـلُ الوَشـيكُ يحـثُّهم ... ولكـــلِّ نفـــسٍ مـــدَّةٌ لا تُـــسبق

لمـــا أعـــان المـــوتُ كبْـــدَ حِبـــالهم ... علِقـــتْ، وأســـبابُ المنيـــةِ تعلَـــق

طرَقـــتْ مِهـــادك حيّـــةٌ بـــشَريّة ... كفـرت ممـا تنتـابُ منـه وتطـرقُ[5]

* * *

---

(١) السحابة المخيلة: التي تحسب ماطرة، أي أن صحبة الفقيد كانت مرجوة الخير كما تكون السحابة المخيلة مرجوة المطر.

(٢) الأجاج: الملح المر.

(٣) الذعاف: سم الساعة.

(٤) العدو الأزرق: هو الكثير العداوة.

(٥) المهاد: الفراش، وفي البيت إشارة إلى حادثة قتل الفقيد بواسطة زوجته.

يا (فوز)، تلك دمشقُ خلفَ سَوادها ... ترمي مكانكَ بالعيون وترْمُق[1]

ذَكرتْ لياليَ بدرِها، فتلفَّتتْ ... فعساك تطلُع، أو لعلَّكَ تُشرق

(بردى) وراءَ ضفافهِ مُستعبرٌ ... والحورُ مَحلولُ الضفائر مُطرق[2]

والطيرُ في جَنَباتِ (دُمَّرَ) نَوَّحٌ ... يجدُ الهمومَ خليُّهن ويَأرَق[3]

ويقول كلُّ مُحدِّثٍ لسميره ... أبذاتِ طَوقٍ بعدَ ذلك يُوثق؟[4]

* * *

عشِقتْ تَهاويلَ الجمالِ، ولم تجِدْ ... في العبقريّة ما يُحبُّ ويُعشق[5]

فمشَتْ كأنَّ بنانَها يدُ مُدْمنٍ ... وكأن ظلَّ السمِّ فيها زِئبق

---

(١) سواد دمشق: أي القرى التابعة لها.

(٢) بردى: نهر بالشام. والمستعبر: بمعنى الباكي. والحور: شجر. وضفائر الحور: غصونه التي تشبه جدائل الشعر.

(٣) دمر (بضم الدال وتشديد الميم المفتوحة): متنزه في دمشق. والخلى: الخالي من الهموم، وهو ضد الشجى.

(٤) ذات الطوق: الحمامة، وهي في هذا البيت كناية عن المرأة.

(٥) التهاويل: الألوان المختلفة.

ولـــو أنَّ مقـــدوراً يُـــردُّ لردِّهـــا لحياتـــه الـــوطنُ المـــرُوعُ المُـــشْفق

أشـقى القـضاءُ الأرض، بعـدَك أُسـرة لـولا القـضاءُ مـن الـسماء لما شَقوا

قـــسَتِ القلـــوبُ علـــيهمُ وتحجَّـــرتْ فـانظر فـؤادَك، هـل يلـينُ ويَرفُـق؟

إن الـــذينَ نزلْـــتَ في أكنـــافهم صَفحوا، فما منهم مَغيطٌ مُحْنَق

سَخِروا من الدنيا كما سخرِتْ بهم وانبـــتَّ مـــن أســـبابها المُتعلِّـــق[1]

يـا مأتمـاً مـن (عبـدِ شمـسٍ) مثلُـه للـشمس يُـصنعُ في الممـات ويُنـسَق

إ ن ضـاق ظهـرُ الأرض عنـك فبطنُها عمّـا وراءَك مـن رُفـاتٍ أضْـيق[2]

لمـــا جمَعْـــتَ الـــشامَ مـــن أطرافـــه وافـى يُعـزِّي الـشامَ فيـك المـشرق

يبكـــي لـــواءً مـــن شـــبابِ أُميّـــةٍ يَحمـي حمـى الحـق المبينِ ويخفـق

لمـــستْ نواصـــيها الحـــصونُ ترومُـــه وتلمَّـــستْهُ فلـــم تجـــدْه الفيلَـــق[3]

---

(١) أنبت: أي قطع.

(٢) الرفات: بقايا الميت.

(٣) نواصي الحصون: أعاليها.

ركنُ الزعامةِ حين تطلب رأيَه   فيَرَى، وتسألُه الخطابَ فينطق

ويكاد من سحرِ البلاغةِ تحتَه   عودُ المنابرِ يُستحف فيُورق[1]

(فيحاءُ)، أين على جنانِك وردةٌ   كانت بها الدنيا ترِفُّ وتعبَق؟[2]

علويّة تجد المسامع طيها   وتُحسُّ ريَّاها العقولُ وتَنشق

وأرائِكُ الزَّهر الغصونُ، وعرشُها   يدُ أمةٍ وجلبنُها والمفْرق

مَنْ مُبلغٌ عنّى شُبولة جلَّقٍ   قولاً يَبرُّ على الزمان ويصْدقُ؟

باللّه جلَّ جلالُه، بمحمدٍ   بيسوعَ، بالغزِّيِّ لا تتفرّقوا

قد تُفسدُ المرْعى على أخواتها   شاةٌ تنِدُّ من القطيع وتمْرُق

---

(١) يستحف: بمعنى يسر ويطرب.

(٢) فيحاء: دمشق.

تحيَّة غَلْيُوم الثَّاني

لصَلاح الدِّين في القبْر

عظيمُ الناسِ مَن يبكي العِظاما	ويَندُبُهم ولو كانوا عِظاما
وأكرَمُ من غمامٍ عندَ مَحْلٍ	فتىً يُحيي بمدحتِهِ الكراما
وما عُذرُ المقصِّر عن جزاءٍ	وما يَجزيهُمو إلى كلاما؟!
فهل من مُبلغٍ غليومَ عنّى	مقالاً مُرضيّاً ذاك المقاما؟
رعاكَ اللهُ من ملكٍ هُمامٍ	تعهّد في الثّرى ملكاً هُماما
أرى النِّسيانَ أظمأه، فلمَّا	وقفْتَ بقبرِه كنتَ الغَماما
تُقرِّبُ عهدَه للناس حتى	تركتَ الجليلَ في التاريخِ عاما
أتدري أيَّ سلطانٍ تُحيِّي	وأيَّ مملَّكٍ تُهدى السَّلاما؟!
دعوْتَ أجلَّ أهل الأرض حَرْباً	وأشرفهم إذا سَكنوا سَلاما

وقفـــتَ بـــه تُـــذَكرُهُ مُلوكـــاً ... تعَـــوَّدَ أن يُلاقـــوهُ قِيامـــا!

وكــم جَمَعَتْهُــو حــربٌ، فكــانوا ... حدائِـدها، وكــان هــو الحُـساما

كِـــلامٌ للبريّـــةِ داميـــاتٌ ... وأنــتَ الــيرومَ مَــنْ ضَـمَدَ الكِلامـا

فلمــا قلــتَ مــا قــد قلــتَ عنــه ... وأسمعـــتَ المالـــكَ والأنامـــا

تــساءَلتِ البريّــةُ وهْــيَ كَلْمَــى ... أحُبّـــاً كـــان ذاكَ أمِ انتقامـــا؟

وأنـــتَ أجـــلُّ أن تُـــزرِي بميْـــتٍ ... وأنـــتَ أبـــرُّ أن تُـــؤذي عظامـــا

فلــو كــان الــدوامُ نـصيبَ مَلْـكٍ ... لنـــال بحـــدِّ صـــارِمِهِ الـــدواما

الشاعر الموسيقي فردي[1]

فتى العقلِ والنَّغمة العاليهْ — مضى ومَحاسنُه باقيهْ
فلا سُوقَةٌ لم تكن أُنْسَهُ — ولا مَلِكٌ لم تَزِن ناديَه
ولم تَخْلُ مِن طِيبها بَلدةٌ — ولم تَخلُ من ذِكرها ناحيه
يكادُ إذا هو غنَّى الورَى — بقافيةٍ يُنْطق القافيه
يَتِيهُ على الماس بعضُ النُّحاسِ — إذا ضَمَّ ألحانه الغاليه
وتَحكم في النفس أوتارُه — على العودِ ناطقةً حاكيه
وتبلغ موضعَ أوطارِها — وتُفشي سَريرتها الخافيه
وكم آيةٍ في الأغاني له — هي الشمسُ ليس لها ثانيه!
إذا ما تَنادى بها العارفون — قل: البرقُ والرعدُ مِنْ غاديه

(1) الشاعر الموسيقي فردي أحد أعلام إيطاليا العالميين، وقد توفي سنة ١٩٠١.

فـــإن هَمَـــسُوا بعـــدَ جَهـــرٍ بهـــا ... فخَفْــقُ الحُلــيِّ علــى الغانيــه

لقـد شـاب (فـردي) وجـاز المَـشيبَ ... و(عَيْـــدا) شَـــبيبتُها زاهيـــه[1]

تُمثِّـــلُ مِـــصرَ لهـــذا الزمـــان ... كمـا هــي في الأعـصُرِ الخاليـه

ونـــذكر تلـــكَ الليـــالي بهـــا ... وننـــشد تلـــك الـــرُّؤى الـــساريه

ونَبكـــي علـــى عزِّنـــا النُنقَـــضي ... وننـــــدُبُ أيَّامنـــــا الماضـــــيه

فيـــا آلَ (فـــردي)، نُعـــزِّيكُمُ ... ونبكـــي مـــع الأســـرةِ الباكيـــه

فقَـــدنا بمفقـــودكم شـــاعِراً ... يقِـــلُّ الزمـــانُ لـــه راويَـــه

---

(١) عيدا: رواية تمثيلية للفقيد.

البلبُلُ الغَرِدُ الَّذي هزَّ الرُّبى

"أنشدت في الحفلة التي أقامتها رابطة الأدب الجديد، تكريماً للشاعر الأستاذ "محمود أبو الوفا"، وكانت هذه القصيدة سبباً إلى عناية الحكومة المصرية وقتئذ بالشاعر - أبي الوفا - وتسفيره إلى أوربا لعمل رجل صناعية بدل ساقه المبتورة!"

وعِـصابةٍ بـالخيرِ ألِّـفُ شملُهـم والخـيرُ أفـضلُ عـصبته ورِفاقـا

جعلـوا التَّعـاونَ والبنايـةَ همَّهـم واستنهـضوا الآدابَ والأخلاقـا

ولقـد يُـداوُون الجِـراح بـبرِّهم ويُقـاتلون البـؤسَ والإملاقـا

يـسمونَ بـالأدب الجديـدِ، وتـارةٍ يبْنـون لـلأدبِ القـديمِ رِواقـا

بعـثَ اهتمـامَهُمو، وهـاجَ حنـانهم زمـنٌ يُـثير العطـفَ والإشـفاقا

عـرَضَ القُعـودُ فكـان نُبوغِـهِ قَيـداً، ودونَ خُطـى الـشباب وِثاقـا

* * *

البُلبُـلُ الغـرِدُ الـذي هـزَّ الرُّبـى		وشَجى الغصونَ، وحـرَّكَ الأوراقـا

خَلَفَ البَهاءَ على القريض وكأسِه		فـسقى بعـذبِ نـسيبه العُـشَّاقا

في القيد مُمتنـعُ الخطى، وخيالـه		يَطـوِي الـبلادَ ويَنـشُر الآفاقـا

سـبَّاقُ غايـاتِ البيـانِ جَـرى بـلا		سـاقٍ، فكيـف إذا استردَّ الـساقا؟!

لـو يَطعـمُ الطِّـبُّ الـصَّناعُ بَيانـه		أو لـو يُـسيغُ لما يقـولُ مَـذاقا....

....غـالي بقيمتـه، فلـم يَصنع لـه		إلا الجَنـاحَ مُحلِّقـاً خفَّاقـا!

مصادر ومراجع الكتاب

- المشوّق، الأستاذ أ.الفتال، ج٣، المطبعة البولسية، حريصا ـ لبنان ١٩٥٧.
- جمال العربية، فاروق شوشة، كتاب العربي، العدد (٥٢) نيسان ٢٠٠٣م.
- الديوان لمؤلفيه عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني، دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ـ القاهرة، ط٤، ١٩٩٧.
- شوقي أمير الشعراء... لماذا؟، فتحي سعيد سلسلة كتابك العدد (٥٤)، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٨.
- دراسة عن شوقي: محاضرات ألقيت في كلية الآداب في جامعة دمشق، شفيق جبري، دار قتيبة ـ دمشق، ط١، ١٩٩٧.
- شوقي شاعر العصر الحديث، د.شوقي ضيف، دار المعارف ـ القاهرة.
- الشعر العربي الحديث من احمد شوقي إلى محمود درويش، د.ميشال خليل جحا، دار العودة ـ بيروت ١٩٩٤.
- مشاهير شعراء العصر، أحمد عبيد، المكتبة العربية ـ دمشق.
- الظرفاء، محمود السعدني، كتاب الهلال، العدد (١٩١) شباط ١٩٦٧.
- مشاهير وظرفاء القرن العشرين، هاني الخير، دار الكتاب العربي، دمشق ـ القاهرة، ط١، ١٩٩٣.
- شخصيات من حياة شوقي، عبد المنعم شميس، دار المعارف ـ القاهرة.
- رحلة مع الظرفاء، أحمد عبد المجيد، سلسلة اقرأ، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٦.
- الأعمال المسرحية الكاملة، أحمد شوقي، دار العودة ـ بيروت، ١٩٨٨.
- الشوقيات، أحمد شوقي، دار العودة ـ بيروت، ١٩٨٣.
- مجلة الهلال: "عدد خاص"، السنة السادسة والسبعون، العدد الحادي عشر، نوفمبر ١٩٦٨.

- مجلة الهلال، أكتوبر ١٩٥٧.
- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- مجلة الهلال، سبتمبر ١٩٤٨.
- قضايا الشعر المعاصر، د.أحمد زكي أبو شادي، الشركة العربية للطباعة والنشر ـ القاهرة، ط١ ١٩٥٩.
- أخلاق الأدباء، الدكتور ابراهيم الكيلاني، ج٢، دمشق.
- أعداد متفرقة من مجلة "الرسالة" المصرية.

الفهرس